

المكتبة الفلسفية

الإبانة في أصول الدين

تأليف

أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
٢٠٠٩ هـ - ١٤٣٠
حقوق الطبع محفوظة للناسر
الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
٢٥٩٣٦٢٧٧ / فاكس: ٢٥٩٣٨٤١١ / ٢٥٩٢٢٦٢٠
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والموائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

ابو الحسن الاشعري، على بن اسماعيل بن اسحاق، ٨٧٤ - ٩٣٦.
الابانة فى اصول الديانة / تاليف: ابى الحسن بن اسماعيل بن على بن ابى بشر. الاشعري
ط ١ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٩
١٣٦ ص : ٢٤ سم
تدمك : ٣٩٦٩ - ٣٤١ - ٩٧٧
١ - الفلسفة الاسلامية
١-العنوان

ديوى: ١٨٩/١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم أبو الحسن علي بن إسماعيل بن علي بن أبي بشر
الأشعري البصري رحمه الله:

الحمد لله الواحد الأحد، العزيز الماجد، المتفرد بالتوحيد، والمنفرد
بالتمجيد، الذي لا تبلغه صفات العبيد، ليس له مثل ولا نديد، وهو المبدئ
المعيد، الفعال لما يريد، جل عن اتخاذ الصواحب والأولاد، وتقدس عن
ملازمة الأجناس والأرجاس، ليست له عثرة تقال، ولا حد يُضرب له مثال، لم
يزل بصفاته أولاً قديراً، ولا يزال عالماً خبيراً، استوفى الأشياء علمه، ونفذت
فيها إرادته، فلم تعذب عليه خفيات الأمور، ولم تغيّرهُ سوائف صروف
الدهور، ولم يلحقه في خلق شيء مما خلق كلال ولا تعب، ولا مسه لغوب ولا
نصب، خلق الأشياء بقدرته، ودبرها بمشيئته، وقهرها بجبروته، وذلّلها بعزته،
فذل لعظمته المتكبرون، واستكان لعز ربوبيته المتعظمون، وانقطع دون
الرسوخ في علمه العالمون، وذلت له الرقاب، وحارت في ملكوته فطن ذوى
الأكباب، وقامت بكلمته السماوات السبع، واستقرت الأرض المهاد، وثبتت
الجبال الرواسي، وجرت الرياح اللواقح، وسار في جو السماء السحاب،
وقامت على حدودها البحار، وهو الله الواحد القهار.

فنحمده كما حمد نفسه، وكما هو أهله ومستحقه، وكما حمده الحامدون من

جميع خلقه، ونستعينه استعانة من فوض الأمر إليه، وأقر أنه لا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه، ونستغفره استغفار مقرر بذنبه، معترف بخطيئته.

ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، إقراراً بوحدانيته، وإخلاصاً لربوبيته، وأنه العالم بما تُبطنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، وما تخفيه النفوس، وما تجن البحار، وما تواريه الأسراب، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، لا توارى عنه كلمة، ولا تغيب عنه غائبة، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ويعلم ما يعمل العاملون، وما ينقلب إليه المقلوبون. ونستهديه بالهدى، ونسأله التوفيق لمجانبة الردى.

ونشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، ونبيه وأمينه وصفيه، أرسله إلى خلقه بالنور الساطع، والسراج اللامع، والحجج الظاهرة، والبراهين والآيات الباهرة، والأعاجيب القاهرة، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وجاهد في الله حق جهاده، حتى تمت كلمة الله سبحانه وتعالى، وظهر أمره، وانقاد الناس إلى الحق خاضعين، حتى أتاه اليقين، لا وإنيّ ولا مقصراً، فصلوات الله عليه من قائد إلى هدى مبين، وعلى أهل بيته الطيبين، وعلى أصحابه المنتخبين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين.

عرّفنا الله به الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، وبيّن لنا به شريعة الإسلام، حتى انجلت عنا طخياء الظلام، وانحسرت عنا به الشبهات، وانكشفت عنا به الغيابات، وظهرت لنا به اليينات.

وجاءنا بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

جَمَعَ فيه علم الأولين والآخرين، وأكمل به الفرائض والدين، فهو صراط الله المستقيم، وحبله المتين، فمن تمسك به نجا، ومن خالفه ضل وغوى، وفي الجهل تردى، وحشنا الله في كتابه على التمسك بسنة رسوله ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ﴾ [النساء: ٥٩]. يقول: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤، ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي بِنَفْسِي ۚ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥]. وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. فأمرهم أن يسمعوا قوله، ويطيعوا أمره، ويجذروا مخالفته، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. فأمرهم بطاعة رسوله كما أمرهم بطاعته، ودعاهم إلى التمسك بسنة نبيه كما أمرهم بالعمل بكتابه.

فنبذ كثير من غلبت عليهم شقوته، واستحوذ عليهم الشيطان - سنن نبي الله ﷺ وراء ظهورهم، ومالوا إلى أسلاف لهم قلدوهم دينهم، ودانوا بديانتهم،

وأبطلوا سنن نبي الله عليه الصلاة والسلام، ودفعوها وأنكروها، وجحدوها
افتراء منهم على الله، ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحذركم الدنيا؛ فإنها حلوة خضرة، تُغُرُّ
أهلها وتخدع سگانها، قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ
مِنَ السَّمَاءِ فَآخَضَلَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

من كان فيها في حيرة أعقبته بعدها عبرة، ومن أعطته من سررائها بطنا
أعقبته من ضررائها ظهرا، غرارة غرور ما فيها، فانية فإن ما فيها، كما حكّم عليها
ربها بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. فاعملوا رحمكم الله
للحياة الدائمة، وللخلود الأبدي، فإن الدنيا تنقضي عن أهلها، وتبقى الأعمال
قلائد في رقاب أهلها.

واعلموا أنكم ميتون، ثم إنكم من بعد موتكم إلى ربكم راجعون
﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].
فكونوا بطاعة ربكم عاملين، وعمانهاكم منتهين.

باب في قول أهل الزيغ والبدع

أما بعد: فإن كثيرا من الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم يُنزل به الله سلطانا، ولا أوضح به برهانا، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين، ولا عن السلف المتقدمين.

وخالفوا روايات الصحابة رضي الله عنهم عن نبي الله ﷺ في رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار، وقد جاءت في ذلك الروايات من الجهات المختلفة، وتواترت بها الآثار وتتابع بها الأخبار.

وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين، ودفعوا الروايات في ذلك عن السلف المتقدمين.

وجحدوا عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين.

ودانوا بخلق القرآن، نظيرا لقول إخوانهم من المشركين الذين قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. فرعموا أن القرآن كقول البشر، وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر، نظيرا لقول المجوس الذين أثبتوا خالقين، أحدهما يخلق الخير، والآخر يخلق الشر.

وزعمت القدرية أن الله تعالى يخلق الخير، وأن الشيطان يخلق الشر.

وزعموا أن الله تعالى يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، خلافا لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وردًا لقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فأخبر تعالى أننا لا نشاء شيئاً إلا وقد شاء الله أن نشاءه.

ولقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ولقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ولقوله تعالى مخبراً عن نبيه شبيب ﷺ أنه قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

ولهذا سباهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة^(١)؛ لأنهم دانوا بديانة المجوس، وضاهوا أقاويلهم. وزعموا أن للخير والشر خالقين، كما زعمت المجوس ذلك، وأنه يكون من الشرور ما لا يشاء الله كما قالت المجوس.

وزعموا أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم من دون الله سبحانه وتعالى، ردًا لقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وإعراضاً عن القرآن، وعماً أجمع عليه أهل الإسلام.

وزعموا أنهم منفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم، فأثبتوا لأنفسهم الغنى عن الله سبحانه وتعالى، ووصفوا أنفسهم بالقدرة على ما لم يصفوا الله سبحانه وتعالى بالقدرة عليه، كما أثبت المجوس -لعنهم الله- للشيطان من

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٦٩١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

القدرة على الشر ما لم يثبتوا لله سبحانه وتعالى، فكانوا مجوس هذه الأمة؛ إذ دانوا بديانة المجوس، وتمسكوا بأقاويلهم، ومالوا إلى أضاليلهم.

وَقَنَطُوا النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَيَسَوْهُمْ مِنْ رُوحِهِ، وَحَكَمُوا عَلَى الْعَصَاةِ بِالنَّارِ وَالْخُلُودِ فِيهَا، خِلَافًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وزعموا أن من دخل النار لا يخرج منها، خلافا لما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخْرِجُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ امْتَحَسُوا فِيهَا وَصَارُوا حَيًّا»^(١).

ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وأنكروا أن له يدان مع قوله سبحانه: ﴿خَلَقْتُ يَمَيْنِي أَسْتَكْبِرْتُ﴾ [ص: ٧٥]. وأنكروا أن يكون له عيانان مع قوله سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وأنكروا أن يكون له سبحانه علم مع قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]. وأنكروا أن يكون له قوة مع قوله سبحانه: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وَنَقَوْا مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم (٣٠٤/١٨٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

السماء الدنيا^(١)، وغير ذلك مما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ.

وكذلك جميع أهل البدع من الجهمية والمرجئة والحرورية أهل الزيغ فيما ابتدعوا وخالفوا الكتاب والسنة، وما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وأجمعت عليه الأمة، كفعل المعتزلة والقدرية، وأنا ذاكر ذلك بابا بابا، وشيئا شيئا إن شاء الله تعالى وبه المعونة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل، برقم (١١٤٥)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليلة والإجابة فيه، برقم (٧٥٨ / ١٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باب في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا سبحانه وتعالى، وبسنة نبينا محمد ﷺ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتمدون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولمن خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدّم، وجليل معظم، وكبير مفهم.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاءوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله سبحانه وتعالى إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق.

وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وأن الله تعالى استوى على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾

[طه: ٥]، وأن له وجهًا بلا كيف، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وأن له يدين بلا كيف، كما قال: ﴿بِيَدَيَّ أَسْتَكَبِّرْتَ﴾ [ص: ٧٥]، وكما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وأن له عينا بلا كيف، كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]. وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالًا. وأن الله علما كما قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وكما قال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج. ونثبت أن الله قوة، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ونقول: إن كلام الله غير مخلوق، وإنه سبحانه لم يخلق شيئا إلا وقد قال له كن ف يكون، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. وإنه لا يكون في الأرض شيء من خير أو شر إلا ما شاء الله، وإن الأشياء تكون بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وإن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله الله، ولا نستغني عن الله، ولا نقدر على الخروج من علم الله سبحانه وتعالى.

وإنه لا خالق إلا الله، وإن أعمال العباد مخلوقة لله مُقَدَّرَةٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وإن العباد لا يقدر أن يخلقوا شيئا وهم يخلقون، كما قال: ﴿مِنْ خَلْقِي غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]،

وكما قال: ﴿لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وكما قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا في كتاب الله كثير.

وإن الله وفق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم، ونظر إليهم، وأصلحهم وهداهم، وأصل الكافرين ولم يهدهم، ولم يلطف بهم بالإيمان، كما زعم أهل الزيغ والبطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين.

وإن الله يَقْدِرُ أَنْ يَصْلِحَ الْكَافِرِينَ، ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين، كما عَلِمَ وخذلهم وطبع على قلوبهم.

وإن الخير والشر بقضاء الله وقدره، وإنا نؤمن بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حلوه ومره، ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصينا، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وإن العباد لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا إلا بإذن الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ونلجئ أمورنا إلى الله، ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه سبحانه وتعالى. ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر.

وندين بأن الله يُرَى في الآخرة بالأبصار، كما يُرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ.

ونقول: إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وإن موسى ﷺ سأل الله سبحانه وتعالى الرؤية في الدنيا، وإن الله تعالى تجلى للجبل فجعله دكا، فَأَعْلَمَ بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا.

وندين بالآل نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه ما لم يستحله، كالزنا والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج، وزعمت أنهم كافرون.

ونقول: إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبهها مستحلا لها، غير معتقد لتحريمها - كان كافرا. ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيمانا.

وندين الله سبحانه وتعالى بأنه يقلب القلوب بين أصبعين من أصابعه^(١)، وأنه سبحانه يضع السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع^(٢)، كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ من غير تكييف.

وندين بالآل نُزِّلَ أحدا من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ولا نارا - إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذنين، أجارنا الله منها بشفاعه سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، برقم (٢٦٥٤/١٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: وما قدروا حق قدره، برقم (٤٨١١)، ومسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: بدون، برقم (٢٧٨٦/١٩)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بعد أن امْتَحَسُوا بِشَفَاعَةِ رسول الله ﷺ، تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن بعذاب القبر وبالخوض، وأن الميزان حق، والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله سبحانه وتعالى يوقف العباد في الموقف، ويحاسب المؤمنين.

وأن الإيثار قول وعمل، يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدل عن عدل، حتى تنتهي الرواية إلى رسول الله ﷺ.

وندين بحب السلف الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، ونُشِّي عليهم بما أثنى الله به عليهم، وتولاهم أجمعين.

ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإن الله سبحانه وتعالى أعز به الدين، وأظهره على المرتدين، وقَدَّمَهُ المسلمون بالإمامة، كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإن الذين قتلوه قتلوه ظلما وعدوانا، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ، وخلافتهم خلافة النبوة.

ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بها ^(١)، ونتولى سائر أصحاب رسول الله ﷺ، ونكف عما شجر بينهم.

وندين بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون، مهديون، فضلاء، لا يوازهم في الفضل غيرهم.

ونصدق بجميع الروايات التي يشتها أهل النقل عن النزول إلى سماء الدنيا، وأن الرب سبحانه وتعالى يقول: هل من سائل، هل من مستغفر، وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل.

ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وسنة نبينا ﷺ، وإجماع المسلمين، وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا، ولا نقول على الله ما لا نعلم.

ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يجيء يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وإن الله يقرب من عباده كيف شاء بلا كيف، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وكما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾﴾ [النجم: ٨، ٩].

ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد، وسائر الصلوات والجماعات خلف

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في الخلفاء، برقم (٤٦٤٩)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

كل بر وفاجر، كما روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم كان يصلي خلف الحجاج^(١). وأن المسح على الخفين سنة في الحضر والسفر، خلافا لقول من أنكر ذلك.

ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة.

وندين بإنكار الخروج بالسيف، وترك القتال في الفتنة، ونُقِرُّ بخروج الدجال^(٢) - أعاذنا الله من فتنه - كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن بعذاب القبر، ومنكر ونكير، ومساءلتها المدفونين في قبورهم.

ونصدق بحديث المعراج، ونُصَحِّح كثيرا من الرؤيا في المنام، ونُقِرُّ أن لذلك تفسيراً.

ونرى الصدقة على موتى المسلمين، والدعاء لهم، ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك.

ونصدق بأن في الدنيا سحرة وسحراء، وأن السحر كائن موجود في الدنيا.

وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة، برهم وفاجرهم، وتوارثهم.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣٩٨٣).

(٢) قلت: أحاديث الدجال أخرجه الأئمة في كتبهم ومصنفاتهم المسندة عن رسول الله وأحاديث الدجال مروية عن أكثر من ثلاثين صحابيا في صفته وصفة خروجه وفتنته.

ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان، وأن من مات وقتل فبأجله مات وقتل.

وأن الأرزاق من قِبَلِ الله سبحانه، يرزقها عباده حلالا وحراما، وأن الشيطان يوسوس للإنسان، ويشككه ويتخبطه، خلافا لقول المعتزلة والجهمية، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وكما قال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ - ٦].

ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات يظهرها عليهم.

وقولنا في أطفال المشركين أن الله تعالى يُوجِّعُ لهم في الآخرة نارا، ثم يقول لهم اقتحموها، كما جاءت بذلك الرواية^(١).

وندين الله سبحانه وتعالى بأنه يعلم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وما كان وما يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين.

ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة، ومجانبة أهل الأهواء.

وسنحتاج لما ذكرناه من قولنا، وما بقى منه مما لم نذكره بابا بابا، وشيئا شيئا إن شاء الله سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٦٨).

باب الكلام في إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة

قال الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، يعني: مشرقة، ﴿إِلَىٰ نَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، يعني: رائية، وليس يخلو النظر من وجوه نحن ذاكروها:

إما أن يكون الله سبحانه عنى نظر الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

أو يكون عنى نظر الانتظار، كقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]. أو يكون عنى نظر الرؤية.

فلا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى عنى نظر التفكير والاعتبار؛ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار.

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار؛ لأن النظر إذا دُكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه، كما إذا ذكر أهل اللسان نظر القلب فقالوا: انظر في هذا الأمر بقلبك، لم يكن معناه نظر العينين، ولذلك إذا ذكر النظر مع الوجه لم يكن معناه نظر الانتظار؛ الذي بالقلب، وأيضا فإن نظر الانتظار لا يكون في الجنة؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة لهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، من العيش السليم والنعيم المقيم.

وإذا كان هذا هكذا لم يجوز أن يكونوا منتظرين؛ لأنهم كلما خطر ببالهم شيء

أتوا به مع خطوره بياهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى أراد نظر التعطف؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم.

وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو أن معنى قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنها رائية ترى ربها سبحانه وتعالى.

ومما يبطل قول المعتزلة: أن الله سبحانه وتعالى أراد بقوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نظر الانتظار، أنه قال: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ونظر الانتظار لا يكون مقرونا بقوله: ﴿إِلَى﴾؛ لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا في نظر الانتظار: إلى، ألا ترى أن الله تعالى لما قال: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩] لم يقل: إلى؛ إذ كان معناه الانتظار.

وقال سبحانه وتعالى مخبرا عن بلقيس: ﴿فَنَازِرَةٌ يَوْمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، فلما أرادت الانتظار لم تقل: إلى.

وقال امرؤ القيس:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب

فلما أراد الانتظار لم يقل: إلى، فلما قال سبحانه: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، علمنا أنه لم يرد الانتظار، وإنما أراد نظر الرؤية.

ولما قرن الله سبحانه وتعالى النظر بذكر الوجه؛ أراد نظر العينين اللتين في الوجه، كما قال: ﴿قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فذكر الوجه، وإنما أراد تقلب عينيه نحو السماء ينتظر نزول

الملك عليه، بصرف الله تعالى له عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة.

فإن قيل: لم قلت: إن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إنما أراد إلى ثواب ربها ناظرة؟

قيل له: ثواب الله غيره، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ولم يقل: إلى غيره ناظرة.

والقرآن العزيز على ظاهره، وليس لنا أن نزله عن ظاهره إلا بحجة، وإلا فهو على ظاهره.

ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى لما قال: صلوا لي واعبدوني. لم يجوز أن يقول قائل: إنه أراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره؛ فلذلك لما قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لم يجوز لنا أن نزله القرآن عن ظاهره بغير حجة.

ثم يقال للمعتزلة: إن جاز لكم أن تزعموا أن قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة، فلم لا جاز لغيركم أن يقول: إن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أراد بها لا تدرك غيره، ولم يرد أنها لا تدركه، وهذا مما لا يقدر على الفرق فيه.

ودليل آخر: ومما يدل على أن الله تعالى يرى بالأبصار، قول موسى ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ولا يجوز أن يكون موسى صلوات الله عليه وسلامه وقد ألبسه الله جلابيب النبين، وعصمه بما عصم به المرسلين - قد سأل ربه ما يستحيل عليه، فإذا لم يجوز ذلك على موسى ﷺ علمنا أنه لم يسأل

ربه مستحيلًا، وأن الرؤية جائزة على ربنا تعالى.

ولو كانت الرؤية مستحيلة على ربنا تعالى كما زعمت المعتزلة، ولم يعلم ذلك موسى ﷺ وعلموه هم لكانوا على قولهم أعلم بالله من موسى ﷺ، وهذا مما لا يدعيه مسلم.

فإن قال قائل: ألسن تعلمون حكم الله في الظهار اليوم، ولم يكن نبي الله ﷺ يعلم ذلك قبل أن ينزل؟

قيل له: لم يكن يعلم نبي الله ﷺ ذلك قبل أن يلزم الله العباد حكم الظهار؛ فلما ألزمهم الحكم به أعلم نبيه ﷺ قبلهم، ثم أعلم نبي الله ﷺ عباد الله ذلك، ولم يأت عليه وقت لزمه حكمه فلم يعلم ﷺ، وأنتم زعمتم أن موسى ﷺ كان قد لزمه أن يعلم حكم الرؤية وأنها مستحيلة عليه، وإذا لم يعلم ذلك وقت أن لزمه علمه، علمتموه أنتم الآن لزمكم بجهلكم أنكم بما لزمكم العلم به الآن أعلم من موسى ﷺ بما لزمه العلم به، وهذا خروج عن دين المسلمين.

ودليل آخر: مما يدل على جواز رؤية الله تعالى بالأبصار، قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فلما كان الله تعالى قادرًا على أن يجعل الجبل مستقرًا؛ كان قادرًا على الأمر الذي لو فعله لراه موسى ﷺ؛ فدل ذلك على أن الله تعالى قادر أن يُري عباده نفسه، وأنه جائز رؤيته.

فإن قال قائل: فلم ما قلتم إن قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ

تَرَكْنِي ﴿ تبعيد للرؤية؟

· قيل له: لو أراد الله سبحانه وتعالى تبعيد الرؤية لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه، ولم يقرنه بما يجوز وقوعه، فلما قرنه باستقرار الجبل؛ وذلك أمر مقدور لله سبحانه وتعالى دل ذلك على أنه جائز أن يرى الله تعالى.

ألا ترى أن الخنساء لما أرادت تبعيد صلحها لمن كان حرباً لأخيها، قرنت الكلام بأمر مستحيل، فقالت:

· ولا أصالح قومًا كنت حربهم حتى تعود بياضاً حلقة القارى

والله تعالى إنما خاطب العرب بلغتها، ونحن نرجع إلى ما نجدّه مفهوماً في كلامها ومعقولا في خطابها.

فلما قرن الرؤية بأمر مقدور جائز؛ علمنا أن رؤية الله بالأبصار جائزة غير مستحيلة.

ودليل آخر: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. قال أهل التأويل: النظر إلى الله سبحانه وتعالى ولم يُنعم الله تعالى على أهل الجنة بأفضل من نظرهم إليه ورؤيتهم له.

وقال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. قيل: النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. وإذا لقيه المؤمنون رأوه.

وقال تعالى: ﴿كَأَلَّا يُبَهُم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لِّتَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].
فحجبهم عن رؤيته، ولا يحجب عنها المؤمنين.

سؤال: فإن قال قائل: فما معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾
[الأنعام: ١٠٣]؟

قيل له: يحتمل أن يكون لا تدركه في الدنيا، وتدركه في الآخرة؛ لأن رؤية
الله تعالى أفضل اللذات، وأفضل اللذات تكون في أفضل الدارين.

ويحتمل أن يكون الله تعالى أراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. يعني: لا
تدركه أبصار الكافرين المكذبين، وذلك أن كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلما
قال في آية: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال
في آية أخرى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، علمنا أنه إنما أراد أبصار الكافرين لا
تدركه.

مسألة والجواب عنها

فإن قال قائل: قد استكبر الله تعالى سؤال السائلين له أن يُرى بالأبصار، فقال: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

فيقال لهم: إن بني إسرائيل سألوا رؤية الله سبحانه وتعالى على طريق الإنكار لنبوة موسى ﷺ، وترك الإيمان به حتى يروا الله؛ لأنهم قالوا: ﴿تُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ﴾ [البقرة: ٥٥]. فلما سألوه الرؤية على طريق ترك الإيمان بموسى ﷺ حتى يريهم الله نفسه؛ استعظم الله سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه، كما استعظم الله سؤال أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتاباً من السماء من غير أن يكون ذلك مستحيلاً؛ ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبي الله حتى ينزل عليهم من السماء كتاباً.

دليل آخر: وما يدل على إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار رواية الجماعات من الجهات المختلفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تروون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضارون في رؤيته»^(١). والرؤية إذا أُطلقت إطلاقاً ومثلت برؤية العيان لم يكن معناها إلا رؤية العيان، ورويت الرواية عن رسول الله ﷺ من طرق مختلفة عديدة، عدة رواها أكثر من عدة خبر الرجم، ومن عدة من روى أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٤)، ومسلم، كتاب: المساجد، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، برقم (٢١١)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

النبي ﷺ قال: «لا وصية لوارث»^(١)، ومن عدة رواة المسح على الخفين، ومن عدة رواة قول رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها»^(٢)، وإذا كان الرجم وما ذكرناه سننا عند المعتزلة كانت الرؤية أولى أن تكون سنة؛ لكثرة روايتها ونقلتها، كذا يروونها خلف عن سلف.

وحديث: «أنى أراه» لا حجة فيه؛ لأنه عندما سأل سائل النبي ﷺ عن رؤية الله سبحانه وتعالى في الدنيا، وقال له: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنى أراه؟»^(٣)؛ لأن العين لا تدرك في الدنيا الأنوار المخلوقة على حقائقها؛ لأن الإنسان لو حذق ينظر إلى عين الشمس فأدام النظر إلى عينيها؛ لذهب أكثر نور بصره، فإذا كان الله سبحانه حكم في الدنيا بالأبصار تقوم العين بالنظر إلى عين الشمس فأحرى ألا يثبت البصر للنظر إلى الله تعالى في الدنيا؛ إلا أن يقويه الله تعالى، فرؤية الله تعالى في الدنيا قد اختلف فيها.

وقد روي عن أصحاب رسول الله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى تراه العيون في الآخرة، وما روى عن أحد منهم أن الله تعالى لا تراه العيون في الآخرة، فلما كانوا على هذا مجمعين، وبه قائلين، وإن كانوا في رؤيته تعالى في الدنيا مختلفين، ثبتت الرؤية في الآخرة إجماعاً، وإن كانت في الدنيا مختلفاً فيها.

-
- (١) أخرجه أبو داود، كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث، برقم (٢٨٧٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.
- (٢) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، برقم (٥١٠٨) من حديث جابر رضي الله عنه، ومسلم واللفظ، كتاب: النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، برقم (٣٥٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٣) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «نور أنى أراه» برقم (١٧٨/٢٩١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ونحن إنما قصدنا إلى إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة، على أن هذه الرواية على المعتزلة لا لهم؛ لأنهم ينكرون أن الله نور في الحقيقة؛ فإذا احتجوا بخبرهم له تاركون وعنه منحرفون، كانوا محجوجين..

دليل آخر: ومما يدل على رؤية الله تعالى بالأبصار، أنه ليس موجود إلا وجائز أن يرى الله سبحانه وتعالى وإنها لا يجوز أن يرى المعدوم، فلما كان الله سبحانه وتعالى موجودًا مثبتًا، كان غير مستحيل أن يرى نفسه سبحانه وتعالى وإنها أراد من نفى رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار التعطيل، فلما لم يمكنهم أن يظهروا التعطيل صراحًا أظهروا ما يثول بهم إلى التعطيل والجحود، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

دليل آخر: ومما يدل على رؤية الله سبحانه بالأبصار، أن الله تعالى يرى الأشياء، وإذا كان للأشياء رائيًا فلا يرى الأشياء من لا يرى نفسه، وإذا كان لنفسه رائيًا فجائز أن يرى نفسه، وذلك أن من لا يعلم نفسه لا يعلم الأشياء، فلما كان الله تعالى عالمًا بالأشياء كان عالمًا بنفسه، فكذلك من لا يرى نفسه لا يرى الأشياء، ولما كان الله سبحانه وتعالى رائيًا للأشياء كان رائيًا لنفسه، وإذا كان رائيًا لها فجائز أن يرى نفسه، كما أنه لما كان عالمًا بنفسه جاز أن يعلمناها، وقد قال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فأخبر أنه يسمع كلًّا منهما ويراهما، ومن زعم أن الله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يرى بالأبصار؛ يلزمه ألا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى رائيًا ولا عالمًا ولا قادرًا؛ لأن العالم والقادر الرائي، جائز أن يرى.

فإن قال قائل: قول النبي ﷺ: «ترون ربكم». يعني: تعلمون ربكم

اضطراباً.

قيل له: إن النبي ﷺ قال لأصحابه هذا على سبيل البشارة، فقال: فكيف بكم إذا رأيتم الله سبحانه، ولا يجوز أن يبشروهم بأمر يشركهم فيه مع الكفار، على أن النبي ﷺ قال: «ترون ربكم». وليس يعني رؤية دون رؤية؛ بل ذلك عام في رؤية العين ورؤية القلب.

دليل آخر: إن المسلمين اتفقوا على أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من العيش السليم، والنعيم المقيم، وليس نعيم في الجنة أفضل من رؤية الله تعالى بالأبصار.

وأكثر من عبادة الله تعالى عبادة للنظر إلى وجهه الكريم - أَرانا الله إياه بفضل - فإذا لم يكن بعد رؤية الله سبحانه وتعالى أفضل من رؤية نبيه ﷺ، وكانت رؤية نبي الله أفضل لذات الجنة كانت رؤية الله سبحانه وتعالى أفضل من رؤية نبيه ﷺ.

وإذا كان ذلك كذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين والصديقين، النظر إلى وجهه الكريم، وذلك أن الرؤية لا تؤثر في المرئي؛ لأن رؤية الرائي تقوم به، فإذا كان هذا هكذا، وكانت الرؤية غير مؤثرة في المرئي لم توجب تشبيهاً ولا انقلاباً عن حقيقة، ولم يستحل على الله سبحانه وتعالى أن يُري عباده المؤمنين نفسه في جنانه.

باب في الرؤية

احتجت المعتزلة في أن الله سبحانه وتعالى لا يرى بالأبصار بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. قالوا: فلما عطف الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ على قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾، وكان قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ على العموم أنه يدركها في الدنيا والآخرة، وأنه يراها في الدنيا والآخرة، كان قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ دليلاً على أنه لا تراه الأبصار في الدنيا والآخرة، وكان في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر.

قيل لهم: فيجب إذا كان عموم القولين واحداً، وكانت الأبصار أبصار العيون وأبصار القلوب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَيْسَ لَهَا تَعْمَى الْبَصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. أي: فهي بالأبصار، فأراد أبصار القلوب، وهي التي يفضل بها المؤمنون الكافرين، ويقول أهل اللغة: فلان بصير بصناعته، يريدون بصير العلم، ويقولون: قد أبصرته بقلبي، كما يقولون: قد أبصرته بعيني، فإذا كان البصر بصر العين وبصر القلب، ثم أوجبوا علينا أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر، وجب عليهم بحجتهم أن الله تعالى لا يدرك بأبصار العيون ولا بأبصار القلوب؛ لأن قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾، وإذا لم يكن عندهم هكذا؛ فقد وجب

أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ أخض من قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ وانتقض احتجاجهم.

وقيل لهم: إنكم زعمتم أنه لو كان قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ خاصاً في وقت دون وقت؛ لكان قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ خاصاً في وقت دون وقت، وكان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤] في وقت دون وقت، فإن جعلتم قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ خاصاً رجع احتجاجكم عليكم، وقيل لكم: إذا كان قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ خاصاً ولم يجب خصوص هذه الآيات، فلم أنكرتم أن يكون قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ إنما أراد في الدنيا دون الآخرة؟ وكما أن قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ أراد بعض الأبصار دون بعض، ولا يوجب ذلك تخصيص هذه الآيات التي عارضتمونا بها.

فإن قالوا: قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ يوجب أنه لا يدرك بها في الدنيا والآخرة، وليس ينفي ذلك أن نراه بقلوبنا، ونبصره بها، ولا ندركه بها.

قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون لا ندركه بإبصار العيون لا يوجب إذا لم ندركه بها ألا نراه، فرويتنا له بالعيون وإبصارنا له بها ليس بإدراك له بها، كما أن إبصارنا له بالقلوب ورؤيتنا له بها ليس بإدراك له.

فإن قالوا: رؤية البصر هي إدراك البصر.

قيل لهم: ما الفرق بينكم وبين مَنْ قال: إن رؤية القلب وإبصاره هو إدراكه وإحاطته، فإذا كان علم القلب بالله سبحانه وتعالى وإبصار القلب له رؤيته إياه ليس بإحاطة ولا إدراك، فما أنكرتم أن تكون رؤية العيون وإبصارها لله سبحانه وتعالى ليس بإحاطة ولا إدراك.

جواب: ويقال لهم: إذا كان قول الله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر، فخبرونا أليس الأبصار والعيون لا تدركه رؤية، ولا لمسًا، ولا ذوقًا ولا على وجه من الوجوه؟

فإن قالوا: نعم. فيقال لهم: أخبرونا عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾. أتزعمون أنه يدركها لمسًا وذوقًا بأن يلمسها؟ فإن قالوا: لا. فيقال لهم: فقد انتقض قولكم: إن قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ في العموم كقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾.

سؤال: إذا قال قائل منهم: إن البصر في الحقيقة هو بصر العين لا بصر القلب. قيل له: ولم زعمت هذا؟ وقد سمى أهل اللغة بصر القلب بصراء، كما سموا بصر العين بصراء، وإن جاز لك ما قلته جاز لغيركم أن يزعم أن البصر في الحقيقة هو بصر القلب دون العين، وإذا لم يجوز هذا فقد وجب أن البصر بصر العين وبصر القلب.

جواب: ويقال لهم: حدثونا عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ ما معناه؟

فإن قالوا: معنى ﴿يُذَرِّكُ الْآبِصَرَ﴾: أنه يعلمها.

قيل لهم: وإذا كان أحد الكلامين معطوفاً على الآخر، وكان قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُذَرِّكُ الْآبِصَرَ﴾ معناه يعلمها، فقد وجب أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبِصَرُ﴾ لا تعلمه، وهذا نفي للعلم لا لرؤية الأبصار.

فإن قالوا: معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُذَرِّكُ الْآبِصَرَ﴾ أنه يراها رؤية ليس معناها العلم. قيل لهم: فالأبصار التي في العيون يجوز أن ترى؟

فإن قالوا: نعم. نقضوا قولهم: إنا لا نرى بالبصر إلا من جنس ما نرى الساعة، فإن جاز أن يرى الله وكل ما ليس من جنس المراتيات وهو الإبصار الذي في العين، فلم لا يجوز أن يرى نفسه، وإن لم يكن من جنس المراتيات؟ ولم لا يجوز أن يرى نفسه وإن لم يكن من جنس المراتيات؟

ويقال لهم: حدثونا إذا رأينا شيئاً فبصرنا يراه أو إنما يراه الرائي دون البصر؟

فإن قالوا: إنه محال أن يرى البصر الذي في العين.

فيقال لهم: الآية تنفي أن تراه الأبصار، ولا تنفي أن يراه المبصرون.

وإنما قال الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبِصَرُ﴾ فهذا لا يدل على أن المبصرين لا يرونه على ظاهر الآية الشريفة.

باب الكلام في أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق

إن سأل سائل عن الدليل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

قيل له: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. وأمر الله هو كلامه، فلما أمرهما بالقيام فقامتا لا يهويان، كان قيامهما بأمره.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالخلق جميع ما خلق داخل فيه؛ لأن الكلام إذا كان لفظه عامًا فحقيقته أنه عام، ولا يجوز لنا أن نزيل الكلام عن حقيقته بغير حجة ولا برهان، فلما قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ كان هذا في جميع الخلق، ولما قال: ﴿وَالْأَمْرُ﴾ ذكر أمرًا غير جميع الخلق، فدل ما وصفنا على أن أمر الله غير مخلوق.

فإن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى في كتابه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]. قيل له: نحن نخص القرآن بالإجماع وبالدليل، فلما ذكر الله سبحانه وتعالى نفسه وملائكته، ولم يدخل في ذكر الملائكة جبريل وميكائيل؛ وإن كانا من الملائكة، ثم ذكرهما بعد ذلك كأنه قال: الملائكة إلا جبريل وميكائيل، ثم ذكرهم بعد ذكر الملائكة، فقال: وجبريل وميكائيل.

ولما قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، ولم يخص قوله: ﴿الْخَلْقُ﴾ دليل، كان قوله:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ في جميع الخلق، ثم قال بعد ذكره الخلق ﴿وَالْأَمْرُ﴾ فأبان الأمر من الخلق، وأمر الله كلامه، وهذا يوجب أن كلام الله غير مخلوق.

وقال سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. يعني: من قبل أن يخلق الخلق ومن بعد ذلك، وهذا يوجب أن الأمر غير مخلوق.

دليل آخر: وما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق؛ قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فلو كان القرآن مخلوقاً؛ لوجب أن يكون مقولاً له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ولو كان الله سبحانه وتعالى قائلاً للقول: ﴿كُنْ﴾ لكان للقول قولاً، وهذا يوجب أحد أمرين: إمّا أن يثول الأمر إلى أن قوله تعالى غير مخلوق، أو يكون كل قول واقع بقول لا إلى غاية، وذلك محال، وإذا استحال ذلك صح وثبت أن الله سبحانه وتعالى قولاً غير مخلوق.

سؤال: فإن قال قائل: معنى قول الله: ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنما يكونه فيكون.

قيل: الظاهر أن يقول له، ولا يجوز أن يكون قول الله للأشياء كلها كوني هو الأشياء؛ لأن هذا يوجب أن تكون الأشياء كلها كلاماً لله سبحانه وتعالى ومن قال ذلك فقد أعظم الفرية؛ لأنه يلزمه أن يكون كل شيء في العالم من إنسان وفرس وحمار وغير ذلك كلام الله، وفي هذا ما فيه.

فلما استحال ذلك؛ صحَّ أن قول الله للأشياء كوني غيرها، وإذا كان غير

المخلوقات فقد خرج كلام الله سبحانه وتعالى عن أن يكون مخلوقاً، ويلزم من يثبت كلام الله مخلوقاً أن يثبت الله غير متكلم ولا قائل، وذلك فاسد، كما يفسد أن يكون علم الله مخلوقاً، وأن يكون الله غير عالم.

فلما كان الله سبحانه وتعالى لم يزل عالماً؛ إذ لم يجوز أن يكون لم يزل بخلاف العلم موصوفاً، استحال أن يكون لم يزل بخلاف الكلام موصوفاً؛ لأن خلاف الكلام الذي لا يكون معه كلام سكوت أو آفة، كما أن خلاف العلم الذي لا يكون معه علم هو جهل أو شك أو آفة، ويستحيل أن يوصف ربنا جلّ وعلا بخلاف العلم.

ولذلك يستحيل أن يوصف بخلاف الكلام من السكوت والآفات، فوجب لذلك أن يكون لم يزل متكلماً، كما وجب أن يكون لم يزل عالماً.

دليل آخر: وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، فلو كانت البحار مداداً للكتابة لنفدت البحار وتكسرت الأقلام، ولم يلحق الفناء كلمات ربي، كما لا يلحق الفناء علم الله تعالى، ومن فني كلامه لحقته الآفات وجرى عليه السكوت، فلما لم يجوز ذلك على ربنا سبحانه صحّ أنه لم يزل متكلماً؛ لأنه لو لم يكن متكلماً؛ وجب السكوت والآفات، تعالى ربنا عن قول الجهمية علواً كبيراً.

الفصل

وزعمت الجهمية - كما زعمت النصارى - أن كلمة الله تعالى حواها بطن مريم رضي الله عنها، وزادت الجهمية عليهم فزعمت أن كلام الله مخلوق حلّ في شجرة، وكانت الشجرة حاوية له؛ فلزمهم أن تكون الشجرة بذلك الكلام متكلمة، ووجب عليهم أن مخلوقاً من المخلوقين كلّم موسى ﷺ، وأن الشجرة قالت: يا موسى، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني.

فلو كان كلام الله مخلوقاً في شجرة؛ لكان المخلوق قال: يا موسى، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني. وقد قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]. وكلام الله من الله تعالى، فلا يجوز أن يكون كلامه الذي هو منه مخلوقاً في شجرة مخلوقة، كما لا يجوز أن يكون علمه الذي هو منه مخلوقاً في غيره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

جواب: ويقال لهم: كما لا يجوز أن يخلق الله إرادته في بعض المخلوقات، كذلك لا يجوز أن يخلق كلامه في بعض المخلوقات، ولو كانت إرادة الله مخلوقة في بعض المخلوقات؛ لكان ذلك المخلوق هو المرید لها، وذلك يستحيل، وكذلك يستحيل أن يخلق الله كلامه في مخلوق؛ لأن هذا يوجب أن ذلك المخلوق متكلم له، ويستحيل أن يكون كلام الله كلاماً للمخلوق.

دليل آخر: ومما يبطل قولهم أن الله قال مخبراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]. يعني: القرآن.

فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولاً للبشر، وهذا ما أنكره الله على المشركين، وأيضاً فلو لم يكن الله متكلماً حتى خلق الخلق، ثم تكلم بعد ذلك لكانت الأشياء قد كانت لا عن أمره ولا عن قوله، ولم يكن قائلاً لها كوني.

وهذا رد للقرآن، والخروج عما عليه جمهور أهل الإسلام.

الفصل

واعلموا - رحمكم الله - أن قول الجهمية: إن كلام الله مخلوق. يلزمهم به أن يكون الله تعالى لم يزل كالأصنام التي لا تنطق ولا تتكلم، لو كان لم يزل غير متكلم؛ لأن الله تعالى يخبر عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه لما قالوا له: ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَتَّبِعُنَا بِهِمْ ﴾ [٦٢، ٦٣]. فاحتج عليهم بأن الأصنام إذا لم تكن ناطقة متكلمة لم تكن آلهة، وأن الإله لا يكون غير ناطق ولا متكلم، فلما كانت الأصنام التي لا يستحيل أن يحييها الله وينطقها لا تكون آلهة، فكيف يجوز أن يكون من يستحيل عليه الكلام في قدمه إلهًا؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وإذا لم يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى في قدمه بمرتبة دون مرتبة الأصنام التي لا تنطق؛ فقد وجب أن يكون الله لم يزل متكلمًا.

دليل آخر: وقد قال الله تعالى مخبرًا عن نفسه أنه يقول: ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٦]. وجاءت الرواية أنه يقول هذا القول ولا يرد عليه أحد شيئًا، فيقول: ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]، فإذا كان الله قائلًا مع فناء الأشياء؛ إذ لا إنسان ولا ملك ولا حي ولا جان ولا شجر ولا مدر، فقد صح أن كلام الله خارج عن الخلق؛ لأنه يوجد ولا شيء من المخلوقات موجود.

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:

[١٦٤]. والتكليم: هو المشافهة بالكلام، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم حالا في غيره، مخلوقاً في شيء سواه، كما لا يجوز ذلك في العلم.

دليل آخر: وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص]، فكيف يكون القرآن مخلوقاً واسم الله في القرآن؟ هذا يوجب أن تكون أسماء الله مخلوقة، ولو كانت أسماءه مخلوقة لكانت وحدانيته مخلوقة، وكذلك علمه وقدرته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]. ولا يقال لمخلوق: ﴿تَبَارَكَ﴾ فدلّ هذا على أن أسماء الله غير مخلوقة، وقال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]. فكما لا يجوز أن يكون وجه ربنا مخلوقاً، فكذلك لا يجوز أن تكون أسماءه مخلوقة.

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. ولا بد أن يكون شهد بهذه الشهادة، وسمعها من نفسه؛ لأنه إن كان سمعها من مخلوق فليست شهادة له، وإذا كانت شهادة له وقد شهد بها فلا يخلو أن يكون شهد بها قبل كون المخلوقات؛ أو بعد كون المخلوقات.

فإن كان شهد بها بعد كون المخلوقات؛ فلم تتسق شهادته لنفسه بأهلية الخلق، وكيف يكون ذلك كذلك؟ وهذا يوجب أن التوحيد لم يكن نشهد به شاهداً قبل الخلق، ولو استحالت الشهادة بالوحدانية قبل كون الخلق؛

لاستحالة إثبات التوحيد ووجوده، وأن يكون واحداً قبل الخلق؛ لأن ما يستحيل الشهادة عليه فمستحيل.

وإن كانت شهادته لنفسه قبل الخلق بالتوحيد؛ فقد بطل أن يكون كلام الله تعالى مخلوقاً؛ لأن كلام الله شهادته.

دليل آخر: ومما يدل عليه بطلان قول الجهمية، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق: أن أسماء الله من القرآن، وقد قال الله سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسْوَئَ﴾ [الأعلى: ١، ٢]. ولا يجوز أن يكون: ﴿اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسْوَئَ﴾ مخلوقاً، كما لا يجوز أن يكون: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] مخلوقاً، قال الله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣]، وكما لا يجوز أن تكون عظمته مخلوقة؛ كذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً.

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. فلو كان كلام الله لا يوجد إلا مخلوقاً في شيء مخلوق؛ لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنى؛ لأن الكلام قد سمعه جميع الخلق ووجدوه -بزعم الجهمية- مخلوقاً في غير الله تعالى، وهذا يوجب إسقاط مرتبة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

ويجب عليهم إذا زعموا أن كلام الله لموسى خلقه في شجرة؛ أن يكون من سمع كلام الله سبحانه وتعالى من ملك أو من نبي أتى به من عند الله، أفضل مرتبة من سماع الكلام من موسى؛ لأنهم سمعوه من نبي ولم يسمعه موسى من الله سبحانه وتعالى وإنما سمعه من شجرة، وأن يزعموا أن اليهودي إذا سمع

كلام الله من نبي عليه الصلاة والسلام، أفضل مرتبة في هذا المعنى من موسى ﷺ؛ لأنَّ اليهودي سمعه من نبي من أنبياء الله، وموسى سمعه مخلوقاً في شجرة، ولو كان مخلوقاً في شجرة لم يكن مكلماً لموسى من وراء حجاب؛ لأنَّ من حضر الشجرة من الجن والإنس قد سمعوا الكلام من ذلك المكان، وكان سبيل موسى وغيره في ذلك سواء في أنه ليس كلام الله له من وراء حجاب.

جواب: ثم يقال لهم: إذا زعمتم أن معنى أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى أنه خلق كلاماً كلمه به، وقد خلق الله عندكم في الذراع كلاماً؛ لأنَّ الذراع قالت لرسول الله ﷺ: لا تأكلني فأني مسمومة^(١). فلزمكم أن ذلك الكلام الذي سمعه النبي ﷺ كلام الله تعالى، فإن استحال أن يكون الله تكلم بذلك الكلام المخلوق فما أنكرتم من أنه يستحيل أن يخلق الله سبحانه وتعالى كلامه في شجرة؛ لأنَّ كلام المخلوق لا يكون كلاماً لله، فإن كان كلام الله وكان معنى أن الله تكلم عندكم أنه خلق الكلام؛ فيلزمكم أن يكون الله متكلماً بالكلام الذي خلقه في الذراع، فإن أجابوا إلى ذلك؛ قيل لهم: فالله تعالى على قولكم هو القائل: لا تأكلني فأني مسمومة. تعالى الله عن قولكم وافترائكم عليه علواً كبيراً.

وإن قالوا: لا يجوز أن يكون كلام الله مخلوقاً في ذراع.

قيل لهم: وكذلك لا يجوز أن يكون كلام الله مخلوقاً في شجرة.

(١) القصة أخرجها البخاري (٢٦١٧) ومسلم (٤٥ / ٢١٩٠). واللفظ عند ابن سعد في طبقاته (١٧٢ / ١)

جواب: ثم يسألون عن الكلام الذي أنطق الله تعالى به الذئب لما أخبر عن نبوة النبي ﷺ.

فيقال لهم: إذا كان الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام يخلقه في غيره، فما أنكرتم أن يكون الكلام الذي سمعه من الذئب كلاماً لله، ويكون إعجازه يدل على أنه كلام الله، وفي هذا ما يجب عليهم أن الذئب لم يتكلم به، وأنه كلام الله تعالى؛ لأنَّ كون الكلام من الذئب معجز، كما أن كونه من الشجرة معجز، فإن كان الذئب متكلماً بذلك الكلام المنقول فما أنكرتم أن الشجرة متكلمة بالكلام إن كان خلق في الشجرة، وأن يكون المخلوق فيه قال: ﴿ياموسى إني أنا الله﴾ [القصص: ٣٠]. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

جواب: ثم يقال لهم: إذا كان كلام الله سبحانه وتعالى مخلوقاً في غيره عندكم، فما يؤمنكم أن يكون كل كلام تسمعون مخلوقاً في شيء، وهو حق بأن يكون كلاماً لله سبحانه؟

فإن قالوا: لا تكون الشجرة متكلمة؛ لأن المتكلم لا يكون إلا حياً.

قيل لهم: ولا يجوز خلق الكلام في شجرة؛ لأنَّ من خلق الكلام فيه لا يكون إلا حياً، فإن جاز أن يخلق الكلام فيما ليس بحي، فلم لا يجوز أن يتكلم من ليس بحي؟ ويقال لهم: ألا قلتم إنه يقول من ليس بحي؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر أن السماوات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

جواب: ثم يقال لهم: أليس قد قال الله سبحانه وتعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨] فلا بد من نعم؟

قيل لهم: فإذا كان كلام الله مخلوقاً، وكانت المخلوقات فانيات؛ فيلزمكم إذا أفنى الله سبحانه وتعالى الأشياء أن تكون اللعنة على إبليس قد فنيت، فيكون إبليس غير ملعون، وهذا ترك دين المسلمين، ورد لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾. وإذا كانت اللعنة باقية على إبليس إلى يوم الدين؛ وهو يوم الجزاء، وهو يوم القيامة؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. يعني: يوم الجزاء، ثم هي أبداً في النار، واللعنة كلام الله وهو قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ فقد وجب أن يكون الله سبحانه وتعالى لا يجوز عليه الفناء، وأنه غير مخلوق؛ لأنَّ المخلوقات يجوز عليها العدم، فإذا لم يجوز ذلك على كلام الله سبحانه وتعالى فهو غير مخلوق.

الرد على الجهمية

سؤال: ثم يقال لهم: إذا كان غضب الله غير مخلوق، وكذلك رضاه وسخطه، فلم لا قلتم إن كلامه غير مخلوق؟ ومن زعم أن غضب الله مخلوق لزمه أن غضب الله وسخطه على الكافرين يفنى، وأن رضاه عن الملائكة والنبين يفنى، حتى لا يكون راضيًا عن أوليائه ولا ساخطًا عن أعدائه، وهذا هو الخروج عن الإسلام.

سؤال: ويقال: خبرونا عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

أتزعمون أن قوله للشيء: ﴿كُنْ﴾ مخلوق مرادًا الله؟ فإن قالوا: لا. قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون كلام الله الذي هو القرآن غير مخلوق، كما زعمتم أن قول الله للشيء: ﴿كُنْ﴾ غير مخلوق. وإن زعموا أن قول الله للشيء: ﴿كُنْ﴾ مخلوق.

قيل لهم: فإذا زعمتم أنه مخلوق مراد فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ فيلزمكم أن قوله تعالى للشيء: ﴿كُنْ﴾ قد قال له: ﴿كُنْ﴾.

وفي هذا ما يجب أحد أمرين: إما أن يكون قول الله لغيره: كن غير مخلوق، أو يكون لكل قول قول لا إلى غاية وذلك محال.

فإن قالوا: إن الله قولًا غير مخلوق.

قيل لهم: فما أنكرتم أن تكون إرادة الله للإيمان غير مخلوقة.

ثم يقال لهم: ما العلة التي إنما قلتم: إن قول الله للشيء: ﴿كُنْ﴾ غير مخلوق.

فإن قالوا: لأنَّ القول لا يقال له: ﴿كُنْ﴾؛ فيقال لهم: القرآن غير مخلوق؛ لأنه قول الله، والله لا يقول لقوله: ﴿كُنْ﴾.

الرد على الجهمية

ويقال لهم: أليس لم يزل الله عالمًا بأوليائه وأعدائه؟ فلا بد من نعم.

قيل لهم: فهل تقولون إنه لم يزل مريدًا للتفرقة بين أوليائه وأعدائه؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فإذا كانت إرادة الله لم تزل فهي غير مخلوقة، وإذا كانت إرادته غير مخلوقة فلم لا قلت إن كلامه غير مخلوق؟

فإن قالوا: لا. نقول: لم يزل مريدًا للتفرقة بين أوليائه وأعدائه، فقد زعموا أن الله لا يريد التفرقة بين أوليائه وأعدائه، ونسبوه سبحانه إلى النقص. تعالى عن قول القدرية علوًا كبيرًا.

جواب: ويقال لهم: إنَّ الشيء المخلوق إمَّا أن يكون بدنًا من الأبدان، شخصًا من الأشخاص؛ أو يكون نعتًا من نعوت الأشخاص.

فلا يجوز أن يكون كلام الله شخصًا؛ لأنَّ الأشخاص يجوز عليها الأكل والشرب والنكاح، ولا يجوز ذلك على كلام الله تعالى.

ولا يجوز أن يكون كلام الله نعتًا لشخص مخلوق؛ لأنَّ النعوت لا تبقى طرفة عين؛ لأنها لا تحتل البقاء، وهذا يوجب أن يكون كلام الله قد فني ومضى.

فلمَّا لم يجز أن يكون شخصًا ولا نعتًا لشخص لم يجز أن يكون مخلوقًا، على أنَّ الأشخاص يجوز أن تموت.

فمن أثبت كلام الله شخصًا مخلوقًا لزمه أن يجوز الموت على كلام الله سبحانه وتعالى وذلك ما لا يجوز.

وأيضًا فلا يجوز أن يكون كلام الله مخلوقًا في شخص مخلوق، كما لا يجوز أن يكون نعتًا لشخص مخلوق، ولو كان مخلوقًا في شخص، وكلام الإنسان مفعولًا فيه، كما لا يمكن التفريق بين كلام الله وكلام الخلق إذا كانا مخلوقين في شخص مخلوق، كما لا يجوز أن يكون علمه مخلوقًا في شخص مخلوق.

سؤال: ويقال لهم أيضًا: لو كان كلام الله مخلوقًا لكان جسمًا أو نعتًا لجسم، ولو كان جسمًا لجاز أن يكون متكلمًا، والله قادر على قلبهما، وفي هذا ما يلزمهم، ويجب عليهم أن يجوزوا أن يقلب الله القرآن إنسانًا أو جنيًا أو شيطانًا، تعالى الله سبحانه وتعالى أن يكون كلامه كذلك.

ولو كان نعتًا لجسم كالنعوت؛ فالله قادر على أن يجعلها أجسامًا؛ فكان يجب على الجهمية أن يجوزوا أن يجعل الله القرآن جسمًا متجسدًا، يأكل ويشرب، وأن يجعله إنسانًا ويميته، وهذا ما لا يجوز على كلام الله، تعالى عن ذلك.

باب في ذكر الرواية في القرآن

مسألة: قال أبو بكر: أتيت أنا والعباس بن عبد العظيم العنبري، أبا عبد الله أحمد بن حنبل، فسأل العباس أبا عبد الله - رحمه الله، ورضي عنه - فقال له: قوم ههنا قد حدثوا يقولون: القرآن لا مخلوق ولا غير مخلوق.

فقال: هؤلاء أضر من الجهمية على الناس، ويلكم فإن لم تقولوا ليس بمخلوق فقولوا مخلوق.

قال أبو عبد الله: هؤلاء قوم سوء.

فقال العباس: ما تقول يا أبا عبد الله؟

فقال: الذي أعتقد وأذهب إليه ولا أشك فيه أن القرآن غير مخلوق.

ثم قال: سبحان الله، ومن يشك في هذا؟!

ثم تكلم أبو عبد الله مستعظماً للشك في ذلك، فقال: سبحان الله، أفي هذا شك؟! قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان﴾ [الرحمن: ١ - ٣] ففرق بين الإنسان وبين القرآن، فقال: ﴿عِلْمٌ﴾، ﴿خَلْقٌ﴾ فجعل يعيدها: ﴿عِلْمٌ﴾، ﴿خَلْقٌ﴾. أي: فرق بينهما.

قال أبو عبد الله: والقرآن علم الله، ألا تراه يقول: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

والقرآن فيه أسماء الله سبحانه وتعالى أي شيء يقولون، ألا يقولون: إن أسماء الله غير مخلوقة، لم يزل الله قديرًا، عليًا، عزيزًا، حكيمًا، سميعًا بصيرًا، لسنا نشك أن أسماء الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة، لسنا نشك أن علم الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، فالقرآن من علم الله وفيه أسماء الله، فلا نشك أنه غير مخلوق، وهو كلام الله سبحانه وتعالى ولم يزل به متكلمًا، ثم قال: وأي كفر أكفر من هذا؟ وأي كفر أشد من هذا؟

إذا زعموا أن القرآن مخلوق؛ فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة، وأن علم الله مخلوق؛ ولكن الناس يتهاونون بهذا ويقولون: إنما يقولون القرآن مخلوق ويتهاونون به ويظنون أنه هين، ولا يدرون ما فيه وهو الكفر، وأنا أكره أن أبوح بهذا لكل أحد، وهم يسألون وأنا أكره الكلام في هذا، فبلغني أنهم يدعونني أمسك.

فقلت له: فمن قال القرآن مخلوق ولا يقول إن أسماء الله مخلوقة ولا علمه لم يزد على هذا، أقول: هو كافر؟

فقال: هكذا هو عندنا.

ثم قال أبو عبد الله: نحن لا نحتاج أن نشك في هذا القرآن عندنا، فيه أسماء الله وهو من علم الله، فمن قال لنا: إنه مخلوق؛ فهو عندنا كافر.

فجعلت أردد عليه، فقال لي العباس -وهو يسمع-: سبحان الله، أما يكفيك دون هذا.

فقال أبو عبد الله: بلى .

وذكر الحسين بن عبد الأول، قال: سمعت وكيعًا يقول: مَنْ قال: القرآن مخلوق؛ فهو مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل.

وذكر محمد بن الصباح البزار، قال: حَدَّثَنَا علي بن الحسين بن شعبان، قال: سمعت ابن المبارك يقول: إنا نستطيع أن نحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية.

قال محمد: نقول: نخاف أن نكفر ولا نعلم.

وذكر هارون بن إسحاق الهمداني عن أبي نعيم، عن سليمان بن عيسى القاري، عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال: قال لي حماد بن أبي سليمان: أبلغ أبا حنيفة المشرك أنى منه بريء؟.

قال سليمان: ثم قال سفيان: لأنه كان يقول القرآن مخلوق، وحاشى الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه من هذا القول؛ بل هو زور وباطل، فإن أبا حنيفة من أفضل أهل السنة.

وذكر سفيان بن وكيع، قال: سمعت عمر بن حماد بن أبي سليمان قال: أخبرني أبي قال: الكلام الذي استتاب فيه ابن أبي ليلى أبا حنيفة هو قوله: القرآن مخلوق. قال: فتاب منه وطاق به في الخلق. قال أبي: فقلت له: كيف صرت إلى هذا. قال: خفت والله أن يقدم عليَّ فأعطيته التقية.

وذكر هارون بن إسحاق قال: سمعت إسماعيل بن أبي الحكم يذكر عن

عمر بن عبيد الطنافسي أنَّ جماد - يعني ابن أبي سليمان - بعث إلى أبي حنيفة: أني بريء مما تقول، إلا أن تتوب، وكان عنده ابن أبي عقبة. قال: فقال: أخبرني جارك أن أبا حنيفة دعاه إلى ما استتيب منه بعد ما استتيب. وهذا كذب محض على أبي حنيفة رضي الله عنه.

وذكر عن أبي يوسف قال: ناظرت أبا حنيفة رضي الله عنه شهرين حتى رجع عن خلق القرآن.

وقال سليمان بن حرب: القرآن غير مخلوق، وأخذته من كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وكلام الله ونظره واحد، يعني غير مخلوق.

وذكر الحسين بن عبد الأول، قال: حدثنا محمد بن الحسن ابن أبي يزيد الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن أبي قيس المديني، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(١). فهذا يثبت أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى وما كان كلاماً لله سبحانه وتعالى لم يكن خلقاً لله، وقد بين الله أن القرآن كلامه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ودل على ذلك في مواضع من كتابه العزيز، وقد قال الله تعالى مخبراً أن الله كلم موسى تكليماً.

وروى وكيع، عن الأعمش، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم، قال: قال

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: فضائل القرآن، باب: (٥) برقم (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان»^(١).

ومما يدل أن الله سبحانه وتعالى متكلم، وأن له كلاماً، ما رواه عفان، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن الأشعب الحرّاني، عن شهر بن حوشب، قال: «فضل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(٢).

وروى يعلى بن المنهال السعدي، قال: حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، قال: ثنا الجراح بن الضحاك الكندي، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»^(٣)، وقال: «إن فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(٤). وذلك أنه منه.

وروى سعيد بن داود، قال: حدثنا أبو سفيان، عن معمر، عن قتادة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْحَارٍ مَا نَفَيْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وذكر هارون بن معروف قال: حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن أساف، عن فروة بن نوفل، وقال: كنت جاراً لخباب بن الأرت، فقال لي: يا هذا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٥٩٥)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، برقم (١٠١٦/٦٧)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٥٠٢٨) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه.

تقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما استطعت، فإنك لن تقترب إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه^(١).

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]. قال: غير مخلوق^(٢).

وروى الليث بن يحيى، قال: حدثني إبراهيم بن أبي الأشعث، قال: سمعت مؤمل بن إسماعيل يحدث عن الثوري، قال: مَنْ زعم أن القرآن مخلوق؛ فقد كفر.

وصحت الرواية عن جعفر بن محمد: أن القرآن لا خالق ولا مخلوق.

وروي ذلك عن عمه زيد بن علي، وعن جده علي بن الحسين رضي الله عنهم أجمعين.

ومن قال: إن القرآن غير مخلوق، وإن من قال بخلقه كافر من العلماء، وحمله الآثار، ونقله الأخبار، وهم لا يحصون كثرة، ومنهم: حماد، والثوري وعبد العزيز بن أبي سلمة، ومالك بن أنس رضي الله عنه، والشافعي رضي الله عنه وأصحابه، وأبو حنيفة، وأحمد بن حنبل، ومالك رضي الله عنهم، والليث بن سعد رضي الله عنه، وسفيان بن عيينة، وهشام، وعيسى بن يونس، وجعفر بن غياث، وسعيد بن عامر، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبو بكر بن عياش، ووکیع، وأبو عاصم النبيل، ويعلى بن عبيد، ومحمد بن يوسف، وبشر بن

(١) أخرجه الحاكم (٢/٤٧٩) وصححه.

(٢) عزاه في الفتح (٨/٥٤٨) لابن مردويه وضعفه.

الفضل، وعبد الله بن داود، وسلام بن أبي مطيع، وابن المبارك، وعلي بن عاصم، وأحمد بن يونس، وأبو نعيم، وقبيصة بن عقبة، وسليمان بن داود، وأبو عبيد القاسم بن سلام، ويزيد بن هارون، وغيرهم.

ولو تتبعنا ذكر من يقول بذلك لطال الكلام، وفيما ذكرنا من ذلك مقنع، والحمد لله رب العالمين.

وقد احتججنا لصحة قولنا: إن القرآن غير مخلوق من كتاب الله سبحانه وتعالى وما تضمنه من البرهان، وأوضحه من البيان، ولم نجد أحدًا ممن تحمل عنه الآثار، وتنقل عنه الأخبار، ويأتم به المؤمنون من أهل العلم يقول بخلق القرآن، وإنما قال ذلك رعاع الناس، وجهال من جهالهم، لا موقع لهم.

والحجاج الذي قدّمناه في ذلك يأتي على كثير من قولهم، ودفع باطلهم، والحمد لله على قوة الحق خمدًا كثيرًا.

باب الكلام على من وقف في القرآن، وقال: لا أقول إنه مخلوق ولا أنه غير مخلوق.

جواب: يقال لهم: لم زعمتم ذلك وقلتموه؟

فإن قالوا: قلنا ذلك؛ لأن الله لم يقل في كتابه إنه مخلوق، ولا قاله رسول الله ﷺ، ولا أجمع المسلمون عليه، ولم يقل في كتابه إنه غير مخلوق، ولا قال ذلك رسول الله ﷺ، ولا أجمع عليه المسلمون، فتوقفنا لذلك، ولم نقل إنه مخلوق، ولا إنه غير مخلوق.

يقال لهم: فهل قال الله تعالى لكم في كتابه: توقفوا فيه ولا تقولوا إنه غير مخلوق. وقال لكم رسول الله ﷺ: توقفوا عن أن تقولوا إنه غير مخلوق، وهل أجمع المسلمون على التوقف عن القول إنه غير مخلوق؟

فإن قالوا: نعم. فقد بهتوا. وإن قالوا: لا. قيل لهم: فلا توقفوا عن أن تقولوا غير مخلوق، بمثل الحجة التي بها ألزمت أنفسكم التوقف.

ثم يقال لهم: ولم أبيتم أن يكون في كتاب الله ما يدل على أن القرآن غير مخلوق؟ فإن قالوا: لم نجد، قيل لهم: ولم زعمتم أنكم إذا لم تجدوه في القرآن فليس بموجود فيه؟ ثم إنا نوجدهم ذلك، وتتلو عليهم الآيات التي احتججنا بها في كتابنا هذا، واستدلنا بها على أن القرآن غير مخلوق، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وكقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾،

وكقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، وسائر ما احتججنا في ذلك من آي القرآن.

ويقال لهم: يلزمكم أن تتوقفوا في كل ما اختلف الناس فيه، ولا تقدموا في ذلك على قول، فإن جاز لكم أن تقولوا ببعض تأويل المسلمين إذا دلّ على صحتها دليل، فلم لا تقولون: إن القرآن غير مخلوق بالحجج التي ذكرناها في كتابنا هذا قبل هذا الموضع؟

سؤال: فإن قال قائل: حدثونا، أتقولون: إن كلام الله في اللوح المحفوظ؟

قيل له: كذلك نقول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢، ٢١]. فالقرآن في اللوح المحفوظ.

وهو في صدور الذين أوتوا العلم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وهو متلو بالألسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعِجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة، محفوظ في صدورنا في الحقيقة، متلو بألسنتنا في الحقيقة، مسموع لنا في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

سؤال: فإن قال قائل: حدثونا عن اللفظ بالقرآن كيف تقولون فيه؟

قيل له: القرآن يُقرأ في الحقيقة ويتلى، ولا يجوز أن يقال: يلفظ به؛ لأن القائل لا يجوز له أن يقول: إن كلام الله ملفوظ به؛ لأن العرب إذا قال قائلهم: لفظت باللقمة من فمي، فمعناه: رميت بها، وكلام الله تعالى لا يقال يلفظ به، وإنما يقال يقرأ، ويتلى، ويكتب، ويحفظ.

وإنما قال قوم: لفظنا بالقرآن؛ لِيُثْبِتُوا أَنَّهُ مخلوق، ويُزِينُوا بدعتهم، وقولهم بخلقه، ويدلسوا كفرهم على من لم يقف على معناتهم، فلما وقفنا على معناتهم أنكرنا قولهم، وكذا لا يجوز أن يقال إن شيئا من القرآن مخلوق؛ لأن القرآن بكماله غير مخلوق.

سؤال: إن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢]؟

قيل له: الذكر الذي عناه الله سبحانه وتعالى ليس هو القرآن، بل هو كلام الرسول ﷺ، ووعظه إياهم.

وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وقد قال الله تعالى: ﴿ ذكرا * رسولا ﴾ [الطلاق: ١١، ١٠]. فسمى الرسول ذكرا، والرسول مُحَدَّث.

وأیضا فإن الله تعالى قال: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾. يخبر أنه لا يأتيهم ذكر محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، ولم يقل: لا يأتيهم ذكر إلا كان محدثا، وإذا لم يقل هذا لم يوجب أن

يكون القرآن محدثا.

ولو قال قائل: ما يأتيهم رجل من التميميين يدعوهم إلى الحق إلا أعرضوا عنه، لم يوجب هذا القول أنه لا يأتيهم رجل إلا كان تميميا، فكذاك الحكم فيما سألونا عنه.

سؤال: فإن سألونا عن قول الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. قيل لهم: الله سبحانه وتعالى أنزل وليس بمخلوق.

فإن قالوا: فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. والحديد مخلوق.

قيل لهم: الحديد جسم موات، وليس يجب إذا كان القرآن منزلا أن يكون جسما مواتا، فكذاك لا يجب إذا كان القرآن منزلا أن يكون مخلوقا، وإن كان الحديد مخلوقا.

جواب: ويقال لهم: قد أمرنا الله تعالى أن نستعيز به وهو غير مخلوق، وأمر أن نستعيز بكلمات الله التامات^(١)، وإذا لم نؤمر أن نستعيز بمخلوق من المخلوقات، وأمرنا أن نستعيز بكلام الله، فقد وجب أن كلام الله غير مخلوق.

(١) أخرج البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي، برقم (٣٣٧١) من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين، بقوله: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان يقول: كان أبوكما يعوذ بها إسماعيل وإسحاق. ويوجد غير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

باب ذكر الاسنواء على العرش

إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟

قيل له: نقول: إن الله سبحانه وتعالى يستوي على عرشه، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. وقد قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿يُذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. وقال تعالى حاكيا عن فرعون لعنه الله: ﴿يَهْمَنُ ابْنُ بِلَى صَرَخًا لَعَلِّي أُبْلَغُ الْآسْنَبَ﴾ ﴿أَسْنَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦]. فكذب فرعون نبي الله موسى عليه السلام في قوله: إن الله سبحانه فوق السماوات.

وقال تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]. فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾. لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾. يعني جميع السماوات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى أن الله تعالى ذكر السماوات، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. ولم يرد أن القمر يملؤهن جميعا، وأنه فيهن جميعا، ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات،

فلولا أن الله سبحانه وتعالى على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطّونها إذا دعوا إلى الأرض.

سؤال: وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. أنه استولى وملك وقهر، وأن الله تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه، كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة.

ولو كان هذا كما ذكره كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله تعالى قادر على كل شيء، والأرض لله سبحانه قادر عليها، وعلى الحشوش، وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء، وهو تعالى مستول على الأشياء كلها لكان مستويا على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش، والأفراد؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها، وإذا كان قادرا على الأشياء كلها لم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله تعالى مستو على الحشوش والأخلية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها.

وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان، فلزمهم أنه في بطن مريم، وفي الحشوش والأخلية، وهذا خلاف الدين. تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

جواب ويقال لهم: إذا لم يكن مستويا على العرش بمعنى يختص العرش

دون غيره، كما قال ذلك أهل العلم ونقله الأخبار وحمله الآثار، وكان الله سبحانه وتعالى في كل مكان فهو تحت الأرض التي السماء فوقها، وإذا كان تحت الأرض والأرض فوقه، والسماء فوق الأرض، وفي هذا ما يلزمكم أن تقولوا إن الله تحت التحت، والأشياء فوقه، وأنه فوق الفوق والأشياء تحته، وفي هذا ما يجب أنه تحت ما هو فوقه، وفوق ما هو تحته، وهذا هو المحال المتناقض، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

دليل آخر: ومما يؤكد أن الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه دون الأشياء كلها، ما نقله أهل الرواية عن رسول الله ﷺ:

روى عفان، قال: ثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا عمرو بن دينار، عن نافع بن جبير، عن أبيه رضي الله عنهم أجمعين، أن النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر»^(١).

روى عبيد الله بن بكر قال: ثنا هشام بن أبي عبد الله، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي جعفر، أنه سمع أبا حفص يحدث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بقي ثلث الليل ينزل الله تبارك وتعالى فيقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يستكشف الضر فأكشفه عنه؟ من ذا الذي يسترزقني فأرزقه؟ حتى ينفجر الفجر»^(٢).

(١) هذا الحديث من رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٦٧).

(٢) تقدم تحريره.

وروى عبد الله بن بكر السهمي، قال: ثنا هشام بن أبي عبد الله، عن يحيى بن كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، قال: ثنا عطاء بن يسار أن رفاعة الجهنني حدثه قال: قفلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال بقديد - حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إذا مضى ثلث الليل - أو قال ثلثا الليل - نزل الله سبحانه وتعالى إلى السماء، فيقول: من ذا الذي يدعوني أستجيب له؟ من ذا الذي يستغفرني أغفر له؟ من ذا الذي يسألني أعطيه؟ حتى ينفجر الفجر»^(١). نزولا يليق بذاته من غير حركة وانتقال، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

دليل آخر: قال الله تعالى: ﴿تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]. فكل ذلك يدل على أنه تعالى في السماء مستو على عرشه، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض، فدل على أنه تعالى منفرد بوحدهانيته، مستو على عرشه، استواء منزلها عن الحلول والاتحاد.

دليل آخر: قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رُتُكُ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٥٧) قال الهيثمي في المجمع (٤٠٨/١٠): رواه الطبراني والبيهقي بأسانيد ورجال بعضها عند الطبراني والبيهقي رجال الصحيح.

إِلَىٰ عِبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٨﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ٨-١٨]. وقال تعالى لعيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿٢٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿٢٨﴾ [النساء: ١٥٨، ١٥٧]. وأجمعت الأمة على أن الله سبحانه رفع عيسى ﷺ إلى السماء، ومن دعاء أهل الإسلام جميعا إذا هم رغبوا إلى الله تعالى في الأمر النازل بهم يقولون جميعا: يا ساكن السماء، ومن حَلَفَهم جميعا: لا والذي احتجب بسبع سموات.

دليل آخر: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. وقد خصت الآية الشريفة البشر دون غيرهم ممن ليس من جنس البشر، ولو كانت الآية عامة للبشر وغيرهم، كان أبعد من الشبهة، وإدخال الشك على من يسمع الآية أن يقول: ما كان لأحد أن يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا، فيرتفع الشك والحيرة من أن يقول: ما كان لجنس من الأجناس أن أكلمه إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو أرسل رسولا، وننزل أجناسا لم يعمهم بالآية فدل ما ذكرنا على أنه خص البشر دون غيرهم.

دليل آخر: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَرِضْهُ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ [الكهف: ٣٨]. كل ذلك يدل على أنه تعالى ليس في خَلْقِهِ، ولا خَلْقَهُ فِيهِ، وأنه مستو على عرشه سبحانه، بلا كيف ولا

استقرار، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

فلم يثبتوا له في وصفهم حقيقة، ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية؛ إذ كل كلامهم يثول إلى التعطيل، وجميع أوصافهم تدل على النفي، يريدون بذلك التنزيه، ونفي التشبيه على زعمهم، فنعوذ بالله من تنزيه يوجب النفي والتعطيل.

دليل آخر: قال الله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. فسمى نفسه نورا، والنور عند الأمة لا يخلو من أن يكون أحد معنيين: إما أن يكون نورا يسمع، أو نورا يرى. فمن زعم أن الله يسمع ولا يرى فقد أخطأ في نفيه رؤية ربه، وتكذبه بكتابه، وقول نبيه ﷺ.

وروت العلماء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله سبحانه وتعالى، فإن بين كرسيه إلى السماء ألف عام، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك^(١).

دليل آخر: وروت العلماء رحمهم الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد لا تزول قدماه من بين يدي الله سبحانه وتعالى حتى يسأله عن عمله»^(٢).

وروت العلماء أن رجلا أتى النبي ﷺ بأمة سوداء فقال: يا رسول الله، إني

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة بنحوه (٣/ ١٥٢) وضعف سنده المحقق.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص، برقم (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي

أريد أن أعتقها في كفارة، فهل يجوز عتقها؟ فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟». قالت: في السماء، قال: «فمن أنا؟». قالت: أنت رسول الله، فقال النبي ﷺ: «اعتقها فإنها مؤمنة»^(١).

وهذا يدل على أن الله تعالى على عرشه فوق السماء.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم (٥٣٧/٣٣) من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

باب الكلام في الوجه والعينين والبص واليدين

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ مَثْنٍ وَّهُالِكُ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. فأخبر أن له سبحانه وجهها لا يفنى، ولا يلحقه الهلاك.

وقال تعالى: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]. فأخبر تعالى أن له وجهها وعينا ولا تكيف ولا تحد.

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَتُصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وقال لموسى وهارون عليها أفضل الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. فأخبر تعالى عن سمعه وبصره ورؤيته.

ونفى الجهمية أن يكون لله تعالى وجه كما قال، وأبطلوا أن يكون له سمع وبصر وعين، ووافقوا النصارى؛ لأن النصارى لم تثبت الله سميعا بصيرا إلا على معنى أنه عالم، وكذلك قالت الجهمية. ففي حقيقة قولهم أنهم قالوا: نقول إن الله عالم، ولا نقول سميع بصير، على غير معنى عالم، وبذلك قول النصارى.

قالت الجهمية: إن الله لا علم له، ولا قدرة، ولا سمع له، ولا بصر، وإنما قصدوا إلى تعطيل التوحيد، والتكذيب بأسماء الله تعالى، فأعطوا ذلك له لفظا، ولم يحصلوا قولا في المعنى، ولولا أنهم خافوا السيف؛ لأفصحوا بأن الله غير سميع ولا بصير ولا عالم، ولكن خوف السيف منعهم من إظهار زندقتههم:

وزعم شيخ منهم مُقَدَّمٌ فيهم أن علم الله هو الله، وأن الله سبحانه عِلْمٌ، فنفى العلم من حيث أوهم أنه يثبت، حتى ألزم أن يقول: يا علم اغفر لي؛ إذ كان علم الله عنده هو الله، وكان الله - على قياسه الفاسد - علما وقدرة. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

قال الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري - رحمه الله ورضي عنه -:
بالله نستهدي، وإياه نستكفي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو المستعان، أما بعد:

فمن سألنا فقال: أتقولون إن لله سبحانه وجهها؟

قيل له: نقول ذلك، خلافا لما قاله المبتدعون، وقد دل على ذلك قوله تعالى:
﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

سؤال: فإن سئلنا: أتقولون إن لله يدين؟

قيل: نقول ذلك بلا كيف، وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بَيْدَيَّ أَتَّكَبَّرْتُ﴾ [ص: ٧٥].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته»^(١). فثبتت اليد بلا كيف.

وجاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ أن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق الجنة

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٧٠٣) من حديث عمر رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده^(١).

وقال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «كلتا يديه يمين»^(٢). وقال تعالى: ﴿لَا خِذْنَا مِنْهُ
بِأَيْمِينٍ﴾ [الحاقة: ٤٥].

وليس يجوز في لسان العرب، ولا في عادة أهل الخطاب، أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة، وإذا كان الله سبحانه وتعالى إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهوما في كلامها، ومعقولا في خطابها، وكان لا يجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني النعمة؛ بطل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ النعمة؛ وذلك أنه لا يجوز أن يقول القائل: لي عليه يدٌ، بمعنى لي عليه نعمة، ومن دافعنا عن استعمال اللغة ولم يرجع إلى أهل اللسان فيها دفع عن أن تكون اليد بمعنى النعمة؛ إذ كان لا يمكنه أن يتعلق في أن اليد النعمة إلا من جهة اللغة، فإذا دفع اللغة لزمه ألا يفسر القرآن من جهتها، وألا يثبت اليد نعمة من قبلها؛ لأنه إن رجع في تفسير قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ نعمتي - إلى الإجماع فليس المسلمون على ما ادعى متفقين، وإن رجع إلى اللغة فليس في اللغة أن يقول القائل: بيدي يعني نعمتي،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣٩٥٧) وابن بطة (٣٠٦/٣) وهناد في الزهد (٦٦/١) من حديث حكيم بن جابر. وصححه الألباني في مختصر العلوص (٧٥): صحيح لكن ليس فيه ذكر المس وغرس الجنة.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل...، برقم (١٨٢٧/١٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

وإن لجأ إلى وجه ثالث سألناه عنه، ولن يجد له سبيلا.

سؤال: ويقال لأهل البدع: ولم زعمتم أن معنى قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتُ﴾ نعمتي، أزعمتم ذلك إجماعاً أو لغة؟ فلا يجدون ذلك في الإجماع ولا في اللغة.
وإن قالوا: قلنا ذلك من القياس.

قيل لهم: ومن أين وجدتم في القياس أن قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتُ﴾ لا يكون معناه إلا نعمتي؟ ومن أين يمكن أن يعلم بالعقل أن تفسير كذا وكذا، مع أنا رأينا الله سبحانه وتعالى قد قال في كتابه العزيز، الناطق على لسان نبيه الصادق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٢]، ولو كان القرآن بلسان غير العرب لما أمكن أن نتدبره، ولا أن نعرف معانيه إذا سمعناه، فلما كان من لا يحسن لسان العرب لا يحسنه، وإنما يعرفه العرب إذا سمعوه على أنهم إنما علموه؛ لأنه بلسانهم نزل، وليس في لسانهم ما ادعوه.

سؤال: وقد اعتل معتل بقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] قالوا: الأيد: القوة؛ فوجب أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتُ﴾ بقدرتي. قيل لهم: هذا التأويل فاسد من وجوه:

أحدها: أن الأيد ليس جمع لليد؛ لأن جمع يد أيدي، وجمع اليد التي هي

نعمة أيادي، وإنما قال تعالى: ﴿ خَلَقْتُ يَدَيَّ أَتُكْبِرُ ﴾، فبطل بذلك أن يكون معنى قوله: ﴿ أَتُكْبِرُ ﴾ معنى قوله: ﴿ بَتَّيْنَهَا بِأَيْدِي ﴾.

وأیضا فلو كان أراد القوة لكان معنى ذلك بقدرتي، وهذا ناقض لقول مخالفنا، وكاسر لمذهبهم؛ لأنهم لا يثبتون قدرة واحدة، فكيف يثبتون قدرتين.

وأیضا فلو كان الله تعالى عنى بقوله: ﴿ خَلَقْتُ يَدَيَّ أَتُكْبِرُ ﴾ القدرة، لم يكن لآدم ﷺ على إبليس مَرَّةً في ذلك، والله تعالى أراد أن يرى فضل آدم ﷺ عليه؛ إذ خلقه بيديه دونه، ولو كان خالقا لإبليس بيده كما خلق آدم ﷺ بيده - لم يكن لتفضيله عليه بذلك وجه، وكان إبليس يقول محتجا على ربه: فقد خلقتني بيديك كما خلقت آدم ﷺ بهما، فلما أراد الله تعالى تفضيله عليه بذلك، قال الله تعالى موبخا له على استكباره على آدم ﷺ أن يسجد له: ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أتكبر ﴾ [ص: ٧٥]، دل على أنه ليس معنى الآية القدرة؛ إذ كان الله تعالى خلق الأشياء جميعا بقدرته، وإنما أراد إثبات يدين، ولم يشارك إبليس آدم ﷺ في أن خلق بهما.

ولیس یخلو قوله تعالى: ﴿ خَلَقْتُ يَدَيَّ أَتُكْبِرُ ﴾ أن يكون معنى ذلك إثبات يدين نعمتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين جارحتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين قدرتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا قدرتين، لا توصفان إلا كما وصف الله تعالى، فلا يجوز أن يكون معنى ذلك نعمتين؛ لأنه لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول القائل: عملت بيدي، وهو يعنى: نعمتي.

ولا يجوز عندنا ولا عند خصومنا أن نعني جارحتين، ولا يجوز عند خصومنا أن نعني قدرتين.

وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع؛ وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ إثبات يدين ليستا جارحتين، ولا قدرتين، ولا نعمتين، لا يوصفان إلا بأن يقال: إنها يدان ليستا كالأيدي، خارجتان عن سائر الوجوه الثلاثة التي سلفت.

سؤال: وأيضا فلو كان معنى قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ نعمتي لك ألا فضيلة لآدم ﷺ على إبليس في ذلك على مذاهب مخالفينا؛ لأن الله تعالى قد ابتداء إبليس على قولهم، كما ابتداء آدم ﷺ، وليس تخلو النعمتان أن يكونا عنى بهما بدن آدم ﷺ، أو يكونا عرضين خُلقا في بدن آدم عليه الصلاة والسلام، فلو كان عنى بدن آدم عليه السلام فالأبدان عند مخالفينا من المعتزلة جنس واحد، وإذا كانت الأبدان عندهم جنسا واحدا فقد حصل في جسد إبليس على مذاهبهم من النعمة ما حصل في جسد آدم ﷺ، وكذلك إن عنى عرضين فليس من عرض فعله في بدن آدم ﷺ من لون، أو حياة، أو قوة، أو غير ذلك، إلا وقد فعل من جنسه عندهم في بدن إبليس، وهذا يوجب أنه لا فضيلة لآدم ﷺ على إبليس في ذلك، والله تعالى إنما احتج على إبليس بذلك ليريه أن لآدم ﷺ في ذلك الفضيلة، فدل ما قلناه على أن الله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿بَيِّنْ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ لم يعن نعمتي.

جواب: ويقال لهم: لم أنكرتم أن يكون الله تعالى عنى بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾

يدين ليستا نعمتين؟

فإن قالوا: لأن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة.

قيل لهم: ولم قضيتم أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة؟ فإن رجعونا إلى شاهدنا، أو إلى ما نجده فيما بيننا من الخلق، فقالوا: اليد إذا لم تكن نعمة في الشاهد لم تكن إلا جارحة.

قيل لهم: إن عملتم على الشاهد وقضيتم به على الله تعالى فكذلك لم نجد حيا من الخلق إلا جسما لحما ودماء، فاقضوا بذلك على الله - تعالى عن ذلك -، وإلا كنتم لقولكم تاركين، ولا اعتلالكم ناقضين.

وإن أثبتتم حيا لا كالأحياء منا فلم أنكرتم أن تكون اليدين اللتان أخبر الله تعالى عنهما يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا كالأيدي؟

وكذلك يقال لهم: لم تجدوا مدبرا حكيما إلا إنسانا، ثم أثبتتم أن للدنيا مدبرا حكيما ليس كالإنسان، وخالفتم الشاهد ونقضتم اعتلالكم فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين من أجل أن ذلك خلاف الشاهد.

سؤال: فإن قالوا إذا أثبتتم الله سبحانه وتعالى يدين لقوله تعالى: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۚ أَسْتَكَبِّرْتَ ۚ ﴾، فلم لا أثبتتم له أيدي لقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِييَا ۙ ﴾ [يس: ٧١]؟

قيل لهم: قد أجمعوا على بطلان قول من أثبت لله أيدي، فلما أجمعوا على بطلان قول من قال ذلك؛ وجب أن يكون الله تعالى ذكر أيدي ورجع إلى إثبات

يدين؛ لأن الدليل قد دل على صحته الإجماع، وإذا كان الإجماع صحيحاً وجب أن يرجع من قوله أيدي إلى يدين؛ لأن القرآن على ظاهره، ولا تُزول عن ظاهره إلا بحجة، فوجدنا حجة أزلنا بها ذكر الأيدي عن الظاهر إلى ظاهر آخر، ووجب أن يكون الظاهر الآخر على حقيقته لا يزول عنها إلا بحجة.

سؤال: فإن قال قائل: إذا ذكر الله سبحانه وتعالى الأيدي وأراد يدين، فما أنكرتم أن يذكر الأيدي ويريد يداً واحدة؟

قيل له: ذكر تعالى أيدي وأراد يدين؛ لأنهم أجمعوا على بطلان قول من قال أيدي كثيرة، وقول من قال يداً واحدة، فقلنا يداً؛ لأن القرآن على ظاهره، إلا أن تقوم حجة بأن يكون على خلاف الظاهر.

سؤال: فإن قال قائل: ما أنكرتم أن يكون قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾، وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ أَشْتَكَبْتُ﴾ على المجاز؟

قيل له: حكم كلام الله تعالى أن يكون على ظاهره وحقيقته، ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا بحجة.

ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم، فإذا ورد بلفظ العموم والمراد به الخصوص فليس هو على حقيقة الظاهر، وليس يجوز أن يعدل بها ظاهره العموم عن العموم بغير حجة، كذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ أَشْتَكَبْتُ﴾ على ظاهره، أو حقيقته من إثبات اليدين، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة.

ولو جاز ذلك. لجاز مُدَّع أن يدعي أن ما ظاهره العموم فهو على الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة، وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان لم يجز لكم ما ادعيتموه أنه مجاز بغير حجة، بل واجب أن يكون قوله تعالى: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ^١ أَشْتَكَبَرْتُ ﴿ إثبات يدين لله تعالى في الحقيقة غير نعمتين، إذا كانت النعمة ألا يجوز عند أهل اللسان أن يقول قائلهم: فعلت بيدي، وهو يعني النعمتين.

باب الرد على الجهمية في فهم علم الله تعالى وقدرته وجميع صفاته

قال الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر: ١١]، وذكر العلم في خمسة مواضع من كتابة العزيز، وقال تعالى: ﴿ فَلِمَ يُسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعِلَمُوا أَنَّهَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ [هود: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وذكر القوة فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْعَتِيقِ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وزعمت الجهمية أن الله تعالى لا علم له، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر له، وأرادوا أن ينفوا أن الله تعالى عالم، قادر، حي، سميع، بصير، فمنعهم خوف السيف من إظهارهم نفي ذلك، فأتوا بمعناه؛ لأنهم إذا قالوا لا علم لله ولا قدرة له، فقد قالوا إنه ليس بعالم ولا قادر، ووجب ذلك عليهم، وهذا إنما أخذوه عن أهل الزندقة والتعطيل؛ لأن الزنادقة قد قال كثير منهم: إن الله تعالى ليس بعالم، ولا قادر، ولا حي، ولا سميع، ولا بصير، فلم تقدر المعتزلة أن تفصح بذلك فأتت بمعناه، وقالت إن الله عالم، قادر، حي، سميع، بصير، من طريق التسمية من غير أن يثبتوا له حقيقة العلم، والقدرة، والسمع،

والبصر.

سؤال: وقد قال رئيس من رؤسائهم -وهو أبو الهذيل العلاف- إن علم الله هو الله، فجعل الله تعالى علما.

وأُلْزِم، فقليل له: إذا قلت إن علم الله هو الله، فقل: يا علم الله اغفر لي وارحمي، فأبى ذلك فلزمه المناقضة.

واعلموا رحمكم الله أن من قال: عالم ولا علم كان مناقضا، كما أن من قال: علم الله ولا عالم كان مناقضا، وكذلك القول في القادر والقدرة، والحياة والحَي، والسمع والبصر، والسميع والبصير.

جواب: ويقال لهم: خبرونا عمن زعم أن الله متكلم، قائل، لم يزل أمرا، ناهيا، لا قول له، ولا كلام، ولا أمر له، ولا نهى، أليس هو مناقض خارج عن جملة المسلمين؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: فكذلك من قال: إن الله تعالى عالم ولا علم له، كان مناقضا خارجا عن جملة المسلمين.

وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والخوارجية -على أن الله علما لم يزل، وقد قالوا: علم الله لم يزل، وعلم الله سابق في الأشياء، ولا يمتنعون أن يقولوا في كل حادثة تحدث ونازلة تنزل: كل هذا سابق في علم الله، فمن جحد أن الله علما فقد خالف المسلمين، وخرج به عن اتفاقهم.

جواب: ويقال لهم: إذا كان الله مريدا فله إرادة؟ فإن قالوا: لا، قيل لهم:

فإذا أثبتتم مريدا لا إرادة له، فأثبتوا أن قائله لا قول له. وإن أثبتوا الإرادة قيل لهم: فإذا كان المريد لا يكون مريدا إلا بإرادة، فما أنكرتم ألا يكون العالم عالما إلا بعلم، وأن يكون لله علم كما أثبتتم له الإرادة.

مسألة: وقد فرقوا بين العلم والكلام فقالوا: إن الله تعالى علم موسى وفرعون، وكلم موسى ولم يكلم فرعون، فكذلك قد يقال علم موسى الحكمة وفصل الخطاب، وآتاه النبوة، ولم يعلم ذلك فرعون، فإن كان الله كلام؛ لأنه كلم موسى ولم يكلم فرعون، فكذلك الله علم؛ لأنه علم موسى ولم يعلم فرعون.

ثم يقال لهم: إذا وجب أن الله كلاما به كلم موسى دون فرعون؛ إذا كلم موسى دونه، فما أنكرتم إذا علمهما جميعا أن يكون له علم به علمهما جميعا.

ثم يقال: قد كلم الله الأشياء بأن قال لها: كوني، وقد أثبتتم لله قولا، وإن علم الأشياء كلها فله علم.

جواب: ثم يقال لهم: إذا أوجبتم أن الله كلاما وليس له علم؛ لأن الكلام أخص من العلم، والعلم أعم منه، فقولوا: إن الله قدرة؛ لأن العلم أعم عندكم من القدرة؛ لأن من مذاهب القدرية أنهم لا يقولون: إن الله يقدر أن يخلق الكفر، فقد أثبتوا القدرة أخص من العلم، فينبغي لهم أن يقولوا على اعتلاهم: إن الله قدرة.

جواب: ثم يقال لهم: أليس الله عالما، والوصف له بأنه عالم أعم من الوصف له بأنه متكلم مكلم؟

ثم لم يجب؛ لأن الكلام أخص من أن يكون الله تعالى متكلما. غير عالم؟ فلم لا تقولون إن الكلام - وإن كان أخص من العلم - أن ذلك لا ينفي أن يكون لله علم، كما لم ينف بخصوص الكلام أن يكون الله عالما؟

جواب: ويقال لهم: من أين علمتم أن الله عالم؟ فإن قالوا: بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]. قيل لهم: وكذلك فقولوا: إن الله علما بقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وبقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]، وكذلك فقولوا: إن له قوة لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فإن قالوا: قلنا: إن الله عالم؛ لأنه صنع العالم على ما فيه من آثار الحكمة واتساق التدبير. قيل لهم: فلم لا تقولون: إن الله علما بما ظهر في العالم من حكمه وآثار تدبيره؟ لأن الصنائع الحكمية لا تظهر إلا من ذي علم، كما لا يظهر إلا من عالم، وكذلك لا تظهر إلا من ذي قوة، كما لا تظهر إلا من قادر.

جواب: ويقال لهم: إذا نفيت علم الله فهلا نفيت أسماءه؟ فإن قالوا: كيف ننفي أسماءه وقد ذكرها في كتابه؟ قيل لهم: فلا تنفوا العلم والقوة؛ لأنه تعالى ذكر ذلك في كتابه العزيز.

جواب آخر: ويقال لهم: قد علم الله تعالى نبيه ﷺ الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، ولا يجوز أن يعلمه ما لا يعلمه، فكذلك لا يجوز أن يعلم الله نبيه ﷺ ما لا علم الله به. تعالى الله عن قول الجهمية علوا كبيرا.

جواب: ويقال لهم: أليس إذا لعن الله الكافرين، فلعنه لهم معنى، ولعن

النبي ﷺ لهم معنى؟ فإن قالوا نعم. فيقال لهم: فما أنكرتم من أن الله تعالى إذا علم نبيه ﷺ شيئا فكان للنبي ﷺ علم، والله تعالى علم، وإذا كنا متى أثبتناه غضبانا على الكافرين فلا بد من إثبات غضب، وكذلك إذا أثبتناه راضيا عن المؤمنين فلا بد من إثبات رضى، وكذلك إذا أثبتناه حيا سميعا بصيرا فلا بد من إثبات حياة وسمع وبصر.

جواب: ويقال لهم: وجدنا اسم عالم اشتق من علم، واسم قادر اشتق من قدرة، وكذلك اسم حي اشتق من حياة، واسم سميع اشتق من سمع، واسم بصير اشتق من بصر، ولا تخلو أسماء الله سبحانه وتعالى من أن تكون مشتقة إما لإفادة معنى، أو على طريق التلقين، فلا يجوز أن يسمى الله تعالى على طريق التلقين باسم ليس فيه إفادة معنى، وليس مشتقا من صفة.

فإذا قلنا: إن الله تعالى عالم قادر فليس تلقينا، كقولنا زيد وعمر، وعلى هذا إجماع المسلمين.

وإذا لم يكن كذلك تلقينا، كان مشتقا من علم، فقد وجب إثبات العلم، وإن كان ذلك لإفادة معنى، فلا يختلف ما هو لإفادة معنى واجب إذا كان معنى العالم منا أن له علما أن يكون كل عالم فهو ذو علم، كما إذا كان قولي موجود مفيدا فينا الإثبات كان الباري تعالى واجبا لإثباته؛ لأنه سبحانه وتعالى موجود.

جواب: ويقال للمعتزلة والجهمية والحرورية: أتقولون إن الله علما بالأشياء سابقا فيها، وبوضع كل حامل، وحمل كل أنثى، ويأنزال كل ما أنزله؟ فإن

قالوا: نعم، فقد أثبتوا العلم ووافقوا. وإن قالوا: لا، قيل لهم: هذا جحد منكم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ﴾، ولقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾.

وإذا كان قول الله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] أوجب أنه عليم يعلم الأشياء، فكذلك فما أنكرتم أن تكون هذه الآيات توجب أن الله علما بالأشياء سبحانه وبحمده.

جواب: ويقال لهم: هل لله سبحانه وتعالى علم بالترقة بين أوليائه وأعدائه؟ وهل هو مرید لذلك؟ وهل له إرادة للإيمان إذا أراد الإيمان؟ فإن قالوا: نعم، وافقوا. وإن قالوا: إذا أراد الإيمان فله إرادة.

قيل لهم: وكذلك إذا فرق بين أوليائه وأعدائه، فلا بد من أن يكون له علم بذلك، وكيف يجوز أن يكون للخلق علم بذلك، وليس للخالق سبحانه وتعالى علم بذلك؟! وهذا يوجب أن للخلق مزية في العلم، وفضلا على الخلاق. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويقال لهم: إذا كان من له علم من الخلق أولى بالمنزلة الرفيعة ممن لا علم له، فإذا زعمتم أن الله تعالى لا علم له لزمكم أن الخلق أعلى مرتبة من الخالق. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

جواب: ويقال لهم: إذا كان من لا علم له من الخلق يلحقه الجهل والنقصان، فما أنكرتم من أنه لا بد من إثبات علم الله؟ وإلا ألحقتم به النقصان -جل عن قولكم وعلا-، ألا ترون أن من لا يعلم من الخلق يلحقه الجهل

والنقصان، ومن قال ذلك في الله سبحانه وتعالى وصف الله تعالى بها لا يليق به، فكذلك إذا كان من قيل له من الخلق لا علم له لحقه الجهل والنقصان، وجب ألا يُنفى ذلك عن الله تعالى؛ لأنه لا يلحقه جهل ولا نقصان.

جواب: ويقال لهم: هل يجوز أن تتسق الصنائع الحكيمة ممن ليس بعالم؟ فإن قالوا: ذلك محال، ولا يجوز في وجود الصنائع التي تجري على ترتيب ونظام إلا من عالم قادر حي.

قيل لهم: وكذلك لا يجوز وجود الصنائع الحكيمة التي تجري على ترتيب ونظام إلا من ذي علم وقدرة وحياة.

فإن جاز ظهورها لا من ذي علم فما أنكرتم من جواز ظهورها لا من عالم قادر حي. وكل مسألة سألناهم عنها في العلم فهي داخلة عليهم في القدرة والحياة والسمع والبصر.

مسألة: وزعمت المعتزلة أن قول الله تعالى: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] معناه عليم.

قيل لهم: فإذا قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]. فمعنى ذلك عندكم علم. فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فقد وجب عليكم أن تقولوا معنى قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أعلم وأعلم إذ كان معنى ذلك العلم.

مسألة: ونفت المعتزلة صفات رب العالمين، وزعمت أن معنى ﴿سَمِيعٌ

بَصِيرٌ». راء بمعنى عليم، كما زعمت النصارى أن سمع الله هو بصره، وهو رؤيته، وهو كلامه، وهو علمه، وهو ابنه. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فيقال للمعتزلة: إذا زعمتم أن معنى سميع وبصير معنى عالم، فهلا زعمتم أن معنى قادر معنى عالم.

وإذا زعمتم أن معنى سميع وبصير معنى قادر، فهلا زعمتم أن معنى قادر معنى عالم.

وإذا زعمتم أن معنى حي معنى قادر، فلم لا تزعمون أن معنى قادر معنى عالم. فإن قالوا: هذا يوجب أن يكون كل معلوم مقدورا. قيل لهم: ولو كان معنى سميع بصير معنى عالم لكان كل معلوم مسموعا، وإذا لم يجز ذلك بطل قولكم.

باب الكلام في الإرادة

الرد على المعتزلة في ذلك، يقال لهم: أستم تزعمون أن الله تعالى لم يزل عالماً؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فلم لا تقولون: إن ما لم يزل عالماً أنه يكون في وقت من الأوقات لم يزل مریداً أن يكون في ذلك الوقت، وما لم يزل عالماً أنه لا يكون فلم يزل مریداً ألا يكون، وأنه لم يزل مریداً أن يكون ما علم كما علم؟

فإن قالوا: لا نقول إن الله لم يزل مریداً؛ لأن الله تعالى مرید بإرادة مخلوقة. قيل لهم: فلم زعمتم أن الله سبحانه وتعالى مرید بإرادة مخلوقة؟ وما الفصل بينكم وبين الجهمية في زعمهم أن الله عالم بعلم مخلوق، وإذا لم يجوز أن يكون علم الله مخلوقاً، فما أنكرتم ألا تكون إرادة الله مخلوقة؟

فإن قالوا: لا يجوز أن يكون علم الله محدثاً؛ لأن ذلك يقتضي أن يكون حدث بعلم آخر كذلك لا إلى غاية.

قيل لهم: ما أنكرتم ألا تكون إرادة الله محدثة مخلوقة؛ لأن ذلك يقتضي أن تكون حدثت عن إرادة أخرى، ثم كذلك لا إلى غاية.

وإن قالوا: لا يجوز أن يكون علم الله محدثاً؛ لأن من لم يكن عالماً ثم علم لحقه النقصان. قيل لهم: ولا يجوز أن تكون إرادة الله محدثة مخلوقة؛ لأن من لم يكن مریداً ثم أراد لحقه النقصان، وكما لا يجوز أن تكون إرادته تعالى محدثة مخلوقة، كذلك لا يجوز أن يكون كلامه محدثاً مخلوقاً.

جواب آخر: ويقال لهم: إذا زعمتم أنه قد كان في سلطان الله سبحانه وتعالى الكفر والعصيان، وهو لا يريده، وأراد أن يؤمن الخلق أجمعون، فلم يؤمنوا فقد وجب على قولكم أن أكثر ما شاء الله أن يكون لم يكن، وأكثر ما شاء الله ألا يكون كان؛ لأن الكفر الذي كان -وهو لا يشاؤه- عندكم أكثر من الإيمان الذي كان وهو يشاؤه، وأكثر ما شاء الله أن يكون لم يكن.

وهذا جحد لما أجمع عليه المسلمون، من أن ما شاء الله أن يكون كان، وما لا يشاء لا يكون.

جواب آخر: ويقال لهم: يستفاد من قولكم: إن كثيرا مما شاء إبليس أن يكون كان؛ لأن الكفر أكثر من الإيمان؛ وأكثر ما كان هو شاءه، فقد جعلتم مشيئة إبليس أنفذ من مشيئة رب العالمين جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، ولا إله غيره؛ لأن أكثر ما شاءه كان، وأكثر ما كان فقد شاءه.

وفي هذا إيجاب أنكم قد جعلتم لإبليس مرتبة في المشيئة ليست لرب العالمين. تعالى الله سبحانه وتعالى عن قول الظالمين علوا كبيرا.

جواب آخر: ويقال لهم: أيما أولى بصفة الاقتدار: من إذا شاء أن يكون الشيء كان لا محالة، وإذا لم يرد له لم يكن، أو من يريده أن يكون فلا يكون ويكون ما لا يريد؟

قإن قالوا: من لا يكون أكثر ما يريده أولى بصفة الاقتدار كابروا. وقيل لهم: إن جاز لكم ما قلتموه جاز لقائل أن يقول: من يكون ما لا يعلمه أولى بالعلم من لا يكون إلا ما يعلمه.

وإن رجعوا عن هذه المكابرة، وزعموا أن من إذا أراد أمرا كان، وإذا لم يردّه لا يكون أولى بصفة الاقتدار لزمهم على مذاهبهم أن يكون إبليس -لعنه الله- أولى بالاقتدار من الله تعالى؛ لأن أكثر ما أراده كان، وأكثر ما كان قد أراده.

وقيل لهم: إذا كان من إذا أراد أمرا كان، وإذا لم يردّه لم يكن أولى بصفة الاقتدار، فيلزمكم أن يكون الله تعالى إذا أراد أمرا كان، وإذا لم يردّه لم يكن؛ لأنه أولى بصفة الاقتدار.

جواب: ويقال لهم: أيما أولى بالإلهية والسلطان من لا يكون إلا ما يعلمه، ولا يغيب عن علمه شيء، ولا يجوز ذلك عليه؟ أو من يكون ما لا يعلمه ويعزب عن علمه أكثر الأشياء؟

فإن قالوا: من لا يكون إلا ما يعلمه ولا يعزب عن علمه شيء أولى بصفة الإلهية. قيل لهم: فكذلك من لا يريد كون شيء إلا ما كان، ولا يكون إلا ما يريده، ولا يعزب عن إرادته شيء أولى بصفة الإلهية كما قلتم ذلك في العلم، وإذا قالوا ذلك تركوا قولهم ورجعوا عنه، وأثبتوا الله سبحانه وتعالى مريدا لكل كائن، وأوجبوا أنه لا يريد أن يكون إلا ما يكون.

جواب: ويقال لهم: إذا قلتم أنه يكون في سلطانه تعالى ما لا يريد، فقد كان إذا في سلطانه ما كرهه. فلا بد من نعم.

يقال لهم: فإذا كان في سلطانه ما يكرهه فما أنكرتم أن يكون في سلطانه ما يأبى كونه.

فإن أجابوا إلى ذلك، قيل لهم: فقد كانت المعاصي شاء الله أم أبى، وهذه صفة الضعف والفقر. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

جواب: ويقال لهم: أليس مما فعل العباد ما يسخطه تعالى وما يغضب عليهم إذا فعلوه فقد أغضبوه وأسخطوه؟ فلا بد من نعم.

فيقال لهم: فلو فعل العباد ما لا يريد وما يكرهه لكانوا قد أكرهوه، وهذه صفة القهر. تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

جواب: ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؟ فلا بد من نعم.

قيل لهم: فمن زعم أن الله تعالى فعل ما لا يريد، وأراد أن يكون من فعله ما لا يكون، لزمه أن يكون قد وقع ذلك وهو ساه غافل عنه، أو أن الضعف والتقصير عن بلوغ ما يريده لحقه. فلا بد من نعم.

قيل لهم: فكذلك من زعم أنه يكون في سلطان الله تعالى ما لا يريده من عبيده؛ لزمه أحد أمرين:

إما أن يزعم أن ذلك كان عن سهو وغفلة. أو أن يزعم أن الضعف والتقصير عن بلوغ ما يريده لحقه.

جواب آخر: ويقال لهم: أليس من زعم أن الله تعالى فعل ما لا يعلمه فقد نسب الله سبحانه إلى ما لا يليق به من الجهل؟ فلا بد من نعم.

قيل لهم: وكذلك يلزم من زعم أن الله فعل ما لا يريد؛ لزمه أن ينسب الله تعالى إلى السهو والتقصير عن بلوغ ما يريد.

فإذا قالوا: نعم. قيل لهم: وكذلك يلزم من زعم أن العباد يفعلون ما لا يعلم الله نسب الله تعالى إلى الجهل. فلا بد من نعم.

يقال لهم: فكذلك إذا كان في كون فعل فعله الله، وهو لا يريد إيجاب سهو أو ضعف أو تقصير عن بلوغ ما يريد.

فكذلك إذا كان من غيره ما لا يريد وجب إثبات سهو وغفلة، أو ضعف وتقصير عن بلوغ ما يريد، لا فرق في ذلك بين ما كان منه وما كان من غيره.

جواب آخر: ويقال لهم: إذا كان في سلطان الله ما لا يريد وهو يعلمه، ولا يلحقه الضعف والتقصير عن بلوغ ما يريد فما أنكرتم أن يكون في سلطانه ما لا يعلمه ولا يلحقه النقصان، فإن لم يجوز هذا لم يجوز ما قلتموه.

مسألة أخرى: إن قال قائل: لم قلتم: إن الله يريد لكل كائن أن يكون، ولكل ما لا يكون ألا يكون؟

قيل له: الدليل على ذلك أن الحجة قد وضحت أن الله تعالى خلق الكفر والمعاصي، وسنين ذلك بعد هذا الموضع من كتابنا.

وإذا وجب أن الله سبحانه خالق لذلك، فقد وجب أنه يريد له؛ لأنه لا يجوز أن يخلق ما لا يريد.

وجواب آخر: أنه لا يجوز أن يكون في سلطان الله تعالى من اكتساب العباد ما لا يريده، كما لا يجوز أن يكون من فعله المجمع على أنه فعل ما لا يريده؛ لأنه لو وقع من فعله ما لا يعلمه، لكان في ذلك إثبات النقصان، وكذلك القول لو وقع من عباده ما لا يعلمه، فكذلك لا يجوز أن يقع من عباده ما لا يريده؛ لأن ذلك يوجب أن يقع عن سهو وغفلة، أو عن ضعف وتقصير عن بلوغ ما يريده، كما يجب ذلك لو وقع من فعله المجمع على أنه فعل ما لا يريده.

وأيضاً فلو كانت المعاصي وهو لا يشاء أن تكون لكان قد كره أن تكون وأبى أن تكون، وهذا يوجب أن تكون المعاصي كائنة شاء الله أم أبى، وهذا صفة الضعف. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد أوضحنا أن الله سبحانه لم يزل مريداً على حقيقته التي علمه عليها، فإذا كان الكفر مما يكون، وقد علم ذلك فقد أراد أن يكون.

جواب: يقال لهم: إذا كان الله سبحانه وتعالى علم أن الكفر يكون، وأراد ألا يكون، فقد أراد أن يكون ما علم على خلاف ما علم، وإذا لم يجوز ذلك فقد أراد أن يكون ما علم كما علم.

جواب: ويقال لهم: لم آيئتم أن يريد الله الكفر الذي علم أنه يكون أن يكون قبيحاً فاسداً متناقضاً خلافاً للإيمان؟ فإن قالوا: لأن مريد السفه سفیه. قيل لهم: ولم قلتم ذلك؟ أو ليس قد أخبر الله تعالى عن ابن آدم أنه قال لأخيه: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ إني أخاف الله رب العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك

جزاء الظالمين ﴿ [المائدة: ٢٨، ٢٩]، فأراد ألا يقتل أخاه لئلا يُعذب، وأن يقتله أخوه حتى يبوء بإثم قتله له، وسائر آثامه التي كانت عليه فيكون من أصحاب النار، فأراد قتل أخيه الذي هو سفيه، ولم يكن بذلك سفيهاً، فلم زعمتم أن الله تعالى إذا أراد سفه العباد وجب أن ينسب ذلك إليه؟

جواب: ويقال لهم: قد قال يوسف ﷺ: ﴿ رَبِّ أَلْسِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]، وكان سجنهم إياه معصية، فأراد المعصية التي هي سجنهم إياه دون فعل ما يدعونه إليه، ولم يكن سفيهاً، فما أنكرتم من أنه لا يجب إذا أراد الباري سبحانه سفه العباد بأن يكون قبيحاً منهم، خلافاً للطاعة أن يكون سفيهاً.

مسألة أخرى: ويقال لهم: أليس من يرى منا حرم المسلمين كان سفيهاً؟ والله تعالى يراهم ولا ينسب إلى السفه؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: فما أنكرتم أن من أراد السفه منا كان سفيهاً، والله سبحانه يريد سفه السفهاء، ولا ينسب إلى الله تعالى سفه. تعالى الله عن ذلك.

مسألة أخرى: ويقال لهم: السفه منا إنما كان سفيهاً لما أراد السفه؛ لأنه نهى عن ذلك، ولأنه تحت شريعة من هو فوقه، ومن يحد له الحدود، وترسم له الرسوم، فلما أتى ما نهى عنه كان سفيهاً، ورب العالمين جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ليس تحت شريعة، ولا فوقه من يحد له الحدود، ويرسم له الرسوم، ولا فوقه مبيح ولا حاطر، ولا أمر ولا زاجر، فلم يجب إذا أراد ذلك أن يكون قبيحاً أن ينسب إلى السفه سبحانه وتعالى.

مسألة: ويقال لهم: أليس من خَلَّى بين عبيده وبين إمامته منا يزني بعضهم ببعض، وهو لا يعجز عن التفريق بينهم - يكون سفيها؟ ورب العالمين سبحانه وتعالى قد خلى بين عبيده وإمامته يزني بعضهم ببعض، وهو يقدر على التفريق بينهم وليس سفيها، وكذلك من أراد السفه منا كان سفيها، ورب العالمين سبحانه وتعالى يريد السفه وليس سفيها.

مسألة أخرى: ويقال لهم: من أراد طاعة الله منا كان مطيعا، كما أن من أراد السفه كان سفيها، ورب العالمين سبحانه وتعالى يريد الطاعة وليس مطيعا، فكذلك يريد السفه وليس سفيها.

مسألة أخرى: ويقال لهم: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فأخبر أنه لو شاء ألا يقتلوا ما اقتلوا، قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] من القتال، فإذا وقع القتال فقد شاءه، كما أنه قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. فقد أوجب أن الرد لو كان إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر، وأنهم إذا لم يردّهم إلى الدنيا لم يعودوا، فكذلك لو شاء الله ألا يقتلوا لما اقتلوا، وإذا اقتلوا فقد شاء أن يقتلوا.

مسألة أخرى: ويقال لهم: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وإذا حق القول بذلك فما شاء أن يؤتي كل نفس هداها؛ لأنه إذا لم يؤتها هداها لما حق القول بتعذيب الكافرين، وإذا لم يرد ذلك فقد شاء ضلالتها.

فإن قالوا: معنى ذلك لو شئنا جبرناهم على الهدى واضطررناهم إليه.

قيل لهم: فإذا أجبرهم على الهدى واضطربهم إليه أيتكونون مهتدين؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فإذا كان إذا فعل الهدى كانوا مهتدين، فما أنكرتم لو فعل كفر الكافرين فكانوا كافرين، وهذا هدم لقولهم؛ لأنهم زعموا أنه لا يفعل الكفر إلا كافر.

ويقال لهم أيضا: على أي وجه يؤتيهم الهدى لو آتاهم إياه، وشاء ذلك لهم؟ فإن قالوا: على الإلجاء. قيل لهم: وإذا ألجأهم إلى ذلك هل ينفعهم ما يفعلونه على طريق الإلجاء؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فإذا أخبر أنه لو شاء لآتاهم الهدى لولا ما حق منه من القول أنه يملأ جهنم، وإذا كان لو ألجأهم لم يكن نافعا لهم ولا مزيلا للعذاب عنهم، كما لم ينفع فرعون قوله الذي قاله عند الغرق والإلجاء، فلا معنى لقولكم، لأنه لولا ما حق من القول لأوتيت كل نفس هداها، وإتيان الهدى على الوجه الذي قلتموه لا يزيل العذاب.

مسألة أخرى: ويقال لهم: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتٍ مِّنْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]. فأخبر أنه لولا أن يكون الناس مجتمعين على الكفر لم ييسط لهم الرزق ولم يجعل للكافرين سقفا من فضة، فما أنكرتم من أنه تعالى لو لم يرد أن يكفر الكافرون ما خلقهم مع علمه بأنه إذا خلقهم كانوا كافرين، كما أنه لو أراد ألا يكون الناس على الكفر مجتمعين لجعل للكافرين سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون؛ لئلا يكونوا جميعا على الكفر متطابقين، إذا كان في علمه أنه لو لم يفعل ذلك لكانوا جميعا على الكفر متطابقين.

باب الكلام في تقديم أعمال العباد والاستطاعة والتعديل والنحو

يقال للقدرية: هل يجوز أن يعلم الله سبحانه وتعالى عباده شيئا لا يعلمه؟
فإن قالوا: لا يعلم الله عباده شيئا إلا وهو به عالم.

قيل لهم: فكذلك لا يقدرهم على شيء إلا وهو عليه قادر، فلا بد من
الإجابة إلى ذلك.

قيل لهم: فإذا أقدرهم على الكفر، فهو قادر على أن يخلق الكفر لهم، وإذا
قدر على خلق الكفر لهم فلم أبستم أن يخلق كفرهم فاسدا متناقضا باطلا، وقد
قال تعالى: ﴿فَعَالٍ لِّمَا يُرِيدُ﴾. وإذا كان الكفر مما أراد فقد فعله وقدره. ويرد
عليهم في اللطف.

يقال لهم: أليس الله سبحانه وتعالى قادر أن يفعل بخلقه من بسط الرزق ما
لو فعله بهم لبغوا في الأرض؟ وأن يفعل بهم ما لو فعله بالكفار لكفروا؟ كما
قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، وكما قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ
يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾. فلا
بد من نعم.

يقال لهم: فما أنكرتم من أنه قادر أن يفعل بهم لطفا لو فعله بهم لآمنوا
أجمعون، كما أنه قادر على أن يفعل بهم أمرا لو فعله بهم لكفروا كلهم.

مسألة أخرى: ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. وقال: ﴿فَأَطْلَعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]. يعني في وسط الجحيم. قال: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِأُتْرِدِينَ﴾ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ﴾ [الصافات: ٥٦، ٥٧].

ما الفضل الذي فعله بالمؤمنين، الذي لو لم يفعله لاتبعوا الشيطان؟ ولو لم يفعله ما زكى منهم من أحد أبدا؟ وما النعمة التي لو لم يفعلها لكانوا من المحضرين؟ وهل ذلك شيء لم يفعله بالكافرين وخص به المؤمنين؟

فإن قالوا: نعم. فقد تركوا قولهم، وأثبتوا الله تعالى نعمة وفضلا على المؤمنين ابتدأهم بجميعه، ولم ينعم بمثله على الكافرين، وصاروا إلى القول بالحق.

إن قالوا: قد فعل الله ذلك أجمع بالكافرين لما فعله بالمؤمنين فعل لهم، فإذا كان الله تعالى قد فعل ذلك أجمع بالكافرين فلم يكونوا زاكين، وكانوا للشيطان متبعين، وفي النار محضرين.

وهل يجوز أن يقول للمؤمنين: لولا أي خلقت لكم الأيدي والأرجل لكتنم للشيطان متبعين؟ وهو قد خلق الأيدي والأرجل للكافرين، وكانوا للشيطان متبعين؟

فإن قالوا: لا يجوز ذلك. قيل لهم: وكذلك لا يجوز ما قلتموه. وهذا يبين أن الله تعالى اختص المؤمنين من النعم والتوفيق والتسديد بما لم يعط الكافرين، وفضل عليهم المؤمنين.

مسألة في الاستطاعة

ويقال لهم: أليست استطاعة الإيمان نعمة من الله تعالى وفضلا وإحسانا؟
فإذا قالوا: نعم. قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون توفيقا وتسديدا، فلا بد من
الإجابة إلى ذلك.

يقال لهم: فإذا كان الكافرون قادرين على الإيمان، فما أنكرتم من أن يكونوا
موفقين للإيمان، ولو كانوا موفقين مسددين لكانوا ممدوحين؛ وإذا لم يجز ذلك لم
يجز أن يكونوا على الإيمان قادرين، ووجب أن يكون الله تعالى اختص بالقدرة
على الإيمان المؤمنين.

مسألة أخرى: ويقال لهم: لو كانت القدرة على الكفر قدرة على الإيمان،
فقد رغب إليه في أن القدرة على الكفر، فلما رأينا المؤمنين يرغبون إلى الله تعالى
في قدرة الإيمان، ويزهدون في قدرة الكفر؛ علمنا أن الذي رغبوا فيه غير الذي
زهدوا فيه.

مسألة أخرى: ويقال لهم: أخبرونا عن قوة الإيمان، أليست فضلا من الله
تعالى؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: فالتفضل، أليس هو ما للمتفضل ألا يتفضل به، وله أن يتفضل
به؟ فلا بد من الإجابة إلى ذلك؛ لأن ذلك هو الفرق بين الفضل وبين
الاستحقاق.

ويقال لهم: وللمتفضل إذا أمر بالإيمان أن يرفع التفضل، ولا يتفضل به فيأمرهم بالإيمان وإن لم يعطهم قدرة الإيمان وخذلهم، وهذا هو قولنا ومذهبنا.

جواب: ويقال لهم: هل يقدر الله على توفيق يوفق به الكافرين حتى يكونوا مؤمنين؟ فإن قالوا: لا. نطقوا بتعجيز الله، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وإن قالوا: نعم يقدر على ذلك، ولو فعل بهم التوفيق لآمنوا، تركوا قولهم، وقالوا بالحق.

مسألة: وإن سألوا عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. وعن قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

قيل لهم: معنى ذلك أنه لا يريد أن يظلمهم؛ لأنه قال: وما الله يريد ظلما لهم، ولم يقل: لا يريد ظلم بعضهم لبعض، فلم يرد أن يظلمهم وإن كان أراد أن يتظالموا.

مسألة: وإن سألوا عن قول الله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]، قالوا: والكفر متفاوت، فكيف يكون من خلق الله؟

والجواب عن ذلك: أن الله تعالى قال: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]. فإنما عني ما ترى في السماوات من فطور؛ لأنه ذكر خلق السماوات، ولم يذكر الكفر، وإذا كان هذا على ما قلناه بطل ما قالوه. والحمد لله رب العالمين.

جواب: ويقال لهم: هل تعرفون الله سبحانه وتعالى نعمة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه خص بها دون أبي جهل ابتداء؟ فإن قالوا: لا، فحُش قولهم.

وإن قالوا: نعم، تركوا مذاهيبهم، لأنهم لا يقولون: إن الله خص المؤمنين في الابتداء بها لم يخص به الكافرين.

مسألة: وإن سألوا عن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]. فقالوا: هذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الباطل. والجواب عن ذلك: أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك تكذيب المشركين الذين قالوا: لا حشر ولا نشور ولا إعادة، فكأنه قال تعالى: ما خلقت ذلك، وأنا لا أئيب من أطاعني، ولا أعاقب من عصاني، كما ظن الكافرون أنه لا حشر ولا نشر ولا ثواب ولا عقاب، ألا تراه قال: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ن: ٢٧]. ويبيّن ذلك بقوله: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أي: لا نسوي بينهم في أن نفيهم أجمعين ولا نعيدهم، فيكون سبيلهم سبيلا واحدا.

مسألة: وإن سألوا عن قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والجواب عن ذلك: أن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني: الخصب والخير، يقولوا: هذا من عند الله. وإن تصبهم سيئة، يعني: الجذب

والقحط والمصائب، قالوا هذه من عندك، أي: بشؤمك، قال الله تعالى: يا محمد ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] في قولهم: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. فحذف قولهم؛ لأن ما تقدم من الكلام يدل عليه؛ لأن القرآن لا يتناقض، ولا يجوز أن يقول في آية إن الكل من عند الله، ثم يقول في الآية الأخرى التي تليها إن الكل ليس من عند الله، على أن ما أصاب الناس هو غير ما أصابوه، وهذا يبين بطلان تعلقهم بهذه الآية، ويوجب عليهم الحجة.

مسألة: وإن سألوا عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والجواب عن ذلك: أن الله تعالى إنما عنى المؤمنين دون الكافرين؛ لأنه أخبرنا أنه ذرأ لجهنم كثيرا من خلقه، فالذين خلقهم لجهنم، وأحصاهم، وعدهم، وكتبهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم؛ غير الذين خلقهم لعبادته.

مسألة في التكليف

ويقال لهم: أليس قد كلف الله سبحانه وتعالى الكافرين أن يستمعوا الحق ويقبلوه ويؤمنوا بالله؟ فلا بد من نعم.

فيقال لهم: فقد قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ [هود: ٢٠]، وقال: ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف: ١٠١]. وقد كلفهم استماع الحق.

جواب: ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢]. أليس قد أمرهم الله تعالى بالسجود في الآخرة؟

وجاء في الخبر: أن المنافقين يجعل في أصلابهم كالصفائح فلا يستطيعون السجود، وفي هذا تثبيت ما نقوله من أنه لا يجب لهم على الله تعالى إذا أمرهم أن يقدرهم، وهو بطلان قول القدرية.

مسألة في إبلام الأطفال

ويقال لهم: أليس قد آلم الله تعالى الأطفال في الدنيا بآلام أوصلها إليهم، كنحو الجذام الذي يقطع أيديهم وأرجلهم وغير ذلك - أعاذنا الله من ذلك - كما يؤلمهم به، وكان ذلك سائغا جائزا؟ فإذا قالوا: نعم. قيل لهم: فإذا كان هذا عدلا فما أنكرتم أن يؤلمهم في الآخرة، ويكون ذلك منه عدلا.

فإن قالوا: ألمهم في الدنيا ليعتبر بهم الآباء. قيل لهم: فإذا فعل بهم ذلك في الدنيا ليعتبر بهم الآباء، وكان ذلك منه عدلا فلم لا يؤلم أطفال الكافرين في الآخرة ليغيب بذلك آباءهم، ويكون ذلك منه عدلا؟

وقد قيل في الخبر: «إن أطفال المشركين تؤجج لهم نار يوم القيامة، ثم يقال لهم اقتحموها، فمن اقتحمها أدخله الجنة، ومن لم يقتحمها أدخله النار»^(١).

مسألة: وقد قيل في الأطفال، وروي عن النبي ﷺ: «إن شئت أسمعك ضغاءهم في النار»^(٢).

جواب: ويقال لهم: أليس قد قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ﴾ [المسد: ١-٣]، وأمره مع ذلك بالإيمان، فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن، وأن الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن، وأمره مع ذلك أن يؤمن، ولا يجتمع الإيمان

(١) تقدم تخرجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٨/٦) وقال الألباني في الضعيفة (٣٨٩٨): موضوع.

والعلم بأنه لا يكون، ولا يقدر على أن يؤمن، وأن يعلم أنه لا يؤمن.

وإذا كان هذا هكذا فقد أمر الله سبحانه أبا لهب بما لا يقدر عليه؛ لأنه أمره أن يؤمن، وأنه يعلم أنه لا يؤمن.

مسألة: ويقال لهم: أليس أمر الله سبحانه وتعالى بالإيمان من علم أنه لا يؤمن؟ فإن قالوا نعم. يقال لهم: فأنتم قادرون على الإيمان، ويتأتى لكم ذلك. وإن قالوا: لا، وافقونا. وإن قالوا: نعم، زعموا أن العباد يقدرون على الخروج من علم الله. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

الرد على المعتزلة

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله عليه: ويقال لهم: أليس المجوس أثبتوا أن الشيطان يقدر على الشر الذي لا يقدر الله سبحانه وتعالى عليه، فكانوا بقولهم هذا كافرين؟ فلا بد من نعم. فيقال لهم: فإذا زعمتم أن الكافرين يقدرون على الكفر، والله تعالى لا يقدر عليه فقد زدتم على المجوس في قولهم؛ لأنكم تقولون معهم: إن الشيطان يقدر على الشر، والله لا يقدر عليه، وهذا ما بيّنه الخبر عن الرسول ﷺ أن «القدريّة مجوس هذه الأمة»^(١)، وإنما صاروا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم قالوا بقول المجوس.

مسألة: وزعمت القدريّة أنا نستحق اسم القدر؛ لأننا نقول إن الله تعالى قدر الشر والكفر، فمن يثبت القدر كان قدريا دون من لم يثبته.

يقال لهم: القدري هو من يثبت القدر لنفسه دون ربه سبحانه وتعالى، وأنه يقدر أفعاله دون خالقه، وكذلك هو في اللغة؛ لأن الصائغ: هو من زعم أنه يصوغ دون من يزعم أنه يصاغ له، والنجار: هو من يضيف النجارة إلى نفسه دون من يزعم أنه ينجر له.

فلما كنتم تزعمون أنكم تقدرون أعمالكم وتفعلونها دون ربكم، وجب أن تكونوا قدرية، ولم تكن نحن قدرية؛ لأننا لم نصف الأعمال إلى أنفسنا دون ربنا سبحانه وتعالى، ولم نقل إنها تقدرها دونه، وقلنا: إنها تقدر لنا.

(١) تقدم تخريجه.

جواب: ويقال لهم: إذا كان من أثبت التقدير لله سبحانه وتعالى قدريا،
فيلزمكم إذا زعمتم أن الله تعالى قدر السماوات والأرض، وقدر الطاعات أن
تكونوا قدرية، فإذا لم يلزم هذا فقد بطل قولكم وانتقض كلامكم.

مسألة في الختم

يقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَبَقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فخبرونا عن الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، أتزعمون أنه هداهم، وشرح للإسلام صدورهم، وأضلهم؟ فإن قالوا: نعم، تناقض قولهم.

وقيل لهم: كيف تكون الصدور مشروحة للإيمان، وهي ضيقة حرجة مختوم عليها؟ وكيف يجتمع الفعل الذي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، مع الشرح، والضيق مع السعة، والهدى مع الضلال، إن كان هذا جاز أن يجتمع التوحيد والإلحاد الذي هو ضد التوحيد، والكفر والإيمان معا في قلب واحد، وإن لم يجوز هذا لم يجوز ما قبلتموه.

فإن قالوا: الختم والضيق والضلال لا يجوز أن يجتمع مع شرح الله الصدر.

قيل لهم: وكذلك الهدى لا يجتمع مع الضلال، وإذا كان هذا هكذا فما شرح الله صدور الكافرين للإيمان، بل ختم الله على قلوبهم وأقفلها عن الحق، وشد عليها، كما دعا نبي الله موسى ﷺ على قومه فقال: ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]. قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس: ٨٩]. وقال تعالى يخبر عن الكافرين أنهم قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فَوَيْءٌ إِذْ إِنَّا وَقَرَّوْا بِبَيْنِنَا

وَيَبَيِّنُكَ حِجَابٌ ﴿ [فصلت: ٥]. فإذا خلق الله الأَكِنَّةَ في قلوبهم، والقفل والزيغ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ۖ وَاللَّهُ ۖ [الصف: ٥]. والختم وضيق الصدر، ثم أمرهم بالإيمان الذي علم أنه لا يكون، فقد أمرهم بما لا يقدرُونَ عليه، وإذا خلق الله في قلوبهم ما ذكرناه من الضيق عن الإيمان، فهل الضيق عن الإيمان إلا الكفر الذي في قلوبهم؟ وهذا يبين أن الله خلق كفرهم ومعاصيهم.

جواب: ويقال لهم: قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَنَّاكَ لَفَدَّتْ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى يخبر عن يوسف ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَاهَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ ۖ ﴾ [يوسف: ٢٤]. فحدَّثونا عن ذلك التثبيت والبرهان، هل فعله الله سبحانه وتعالى بالكافرين، أو ما هو مثله؟ فإن قالوا: لا، تركوا القول بالقدر.

وإن قالوا: نعم. قيل لهم: فإذا كان لم يركن إليهم من أجل التثبيت فيجب لو كان فعل ذلك بالكافرين ألا يثبتوا على الكفر، وإذا لم يكونوا عن الكفر مفترقين فقد بطل أن يكون فعل بهم مثل ما فعله بالنبي ﷺ من التثبيت الذي لما فعله به لم يركن إلى الكافرين.

مسألة في الاستثناء

ويقال لهم: خبرونا عن مطالبة رجل بحق، فقال له: والله لأعطينك ذلك غدا إن شاء الله تعالى، أليس الله شائيا أن يعطيه حقه؟ فإن قالوا: نعم. يقال لهم: أفرأيتم إن جاء الغد فلم يعطه حقه، أليس لا يحنت؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: فلو كان الله شاء أن يعطيه حقه لحنت إذا لم يعطه، كما لو قال: والله لأعطينك حقه إذا طلع الفجر غدا، ثم طلع ولم يعطه أنه يكون حائثا.

مسألة في الآجال

يقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: فخبرونا عن قتله قاتله ظلماً، أترعمون أنه قتل في أجله، أو بأجله؟ فإن قالوا: نعم، وافقوا وقالوا بالحق، وترك القدر. وإن قالوا: لا. قيل لهم: فمتى أجل هذا المقتول؟ فإن قالوا: الوقت الذي علم الله أنه لو لم يقتل لتزوج امرأة علم أنها امرأته، وإن لم يبلغ إلى أن يتزوجها، وإذا كان في معلوم الله أنه لو لم يقتل وبقي لكفر أن تكون النار داره.

وإذا لم يجوز هذا لم يجوز أن يكون الوقت الذي لم يبلغ إليه أجلاً له، على أن هذا القول لا يفيد لقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

مسألة أخرى: ويقال لهم: إذا كان القاتل عندكم قادراً على ألا يقتل هذا المقتول فيعيش، فهو قادر على قطع أجله وتقديمه قبل أجله، وهو قادر على تأخيرهِ إلى أجله، فالإنسان على قولكم يقدر أن يقدم آجال العباد ويؤخرها، ويقدر أن يبقي العباد ويبلغهم ويخرج أرواحهم، وهذا إلحاد في الدين.

مسألة في الأسزاق

ويقال لهم: خبرونا عمن اغتصب طعاما فأكله حراما، هل رزقه الله ذلك الحرام؟ فإن قالوا: نعم، تركوا القدر. وإن قالوا: لا. قيل لهم: فمن أكل جميع عمره الحرام، فما رزقه الله شيئا اغتذى به جسمه.

ويقال لهم: فإذا كان غيره يغتصب له ذلك الطعام ويطعمه إياه إلى أن مات، فرازق هذا الإنسان عندكم غير الله، وفي هذا إقرار منهم أن للخلق رازقين:

أحدهما يرزق الحلال، والآخر يرزق الحرام، وأن الناس تنبت لحومهم وتشتد عظامهم، والله غير رازق لهم ما اغتدوا به. وإذا قلتم: إن الله لم يرزقه الحرام، لزمكم أن الله لم يغذ به، ولا جعله قواما لجسمه، وأن لحمه وجسمه قام وعظمه اشتد بغير الله سبحانه وتعالى، وهو من رزقه الحرام، وهذا كفر عظيم إن احتملوا.

مَسْأَلَةٌ أُخْرَى فِي الْأَسْزَاقِ

ويقال لهم: لَمْ أَبَيْتُمْ أَنْ يَرْزُقَ اللَّهُ الْحَرَامَ؟ فَإِنْ قَالُوا: لِأَنَّهُ لَوْ رَزَقَ الْحَرَامَ لَمَلِكَ الْحَرَامَ.

يَقَالُ لَهُمْ: خَبَرُونَا عَنِ الطِّفْلِ الَّذِي يَتَغَذَّى مِنْ لَبَنِ أُمِّهِ، وَعَنِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي تَرَعَى الْحَشِيشَ، مَنْ يَرْزُقُهُمَا ذَلِكَ؟ فَإِنْ قَالُوا: اللَّهُ تَعَالَى. قِيلَ لَهُمْ: فَمَنْ مَلِكُهُمَا؟ وَهَلْ لِلْبَهِيمَةِ مَلِكٌ؟

فَإِنْ قَالُوا: لَا. قِيلَ لَهُمْ: فَلِمَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ لَوْ رَزَقَ الْحَرَامَ لَمَلِكَ الْحَرَامَ، وَقَدْ يَرْزُقُ اللَّهُ الشَّيْءَ وَلَا يُمَلِّكُهُ؟

وَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ أَقْدَرَ اللَّهُ الْعَبْدَ عَلَى الْحَرَامِ وَلَمْ يَمَلِّكْهُ إِيَّاهُ؟ فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ. يُقَالُ لَهُمْ: فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَرْزُقَهُ الْحَرَامَ، وَإِنْ لَمْ يَمَلِّكْهُ إِيَّاهُ.

جَوَابُ: يُقَالُ لَهُمْ: إِذَا كَانَ تَوْفِيقُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ خُذْلَانُ الْكَافِرِينَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَّا فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ وَفَقَ الْكَافِرِينَ لِلْإِيمَانِ فَقُولُوا: عَصَمَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَكَيْفَ يَعَصَمُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَقَدْ وَقَعَ الْكُفْرُ مِنْهُمْ؟

فَإِنْ أَثْبَتُوا أَنَّ اللَّهَ خَذَلَهُمْ، قِيلَ لَهُمْ: فَالْخُذْلَانُ مِنَ اللَّهِ أَلَيْسَ هُوَ الْكُفْرُ الَّذِي خَلَقَهُ فِيهِمْ؟ فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ، وَافَقُوا. وَإِنْ قَالُوا: لَا. قِيلَ لَهُمْ: فَمَا ذَلِكَ الْخُذْلَانُ الَّذِي خَلَقَهُ؟ فَإِنْ قَالُوا: تَخْلِيَتُهُ إِيَّاهُمْ وَالْكَفْرُ.

قِيلَ لَهُمْ: أَوْ لَيْسَ مِنْ قَوْلِكُمْ: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَى بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ

الكفر؟ فإن قالوا: نعم.

قيل لهم: فإذا كان الخذلان التخلية بينهم وبين الكفر، فقد لزمكم أن يكون خذل المؤمنين؛ لأنه خلى بينهم وبين الكفر، وهذا خروج عن الدين، فلا بد لهم أن يثبتوا لهم الخذلان للكفر الذي خلقه الله فيهم فيتركوا القول بالقدر.

مسألة: إن سأل سائل من أهل القدر، فقال: هل يخلو العبد من أن يكون بين نعمة يجب عليه أن يشكر الله عليها، أو بليّة يجب عليه الصبر عليها؟

قيل له: العبد لا يخلو من نعمة وبليّة، والنعمة يجب على العبد أن يشكر الله عليها، والبلايا على ضريين:

منها ما يجب الصبر عليها، كالأمراض والأسقام وما أشبه ذلك. ومنها ما يجب عليه الإقلاع عنها، كالكفر والمعاصي.

مسألة: وإن سألوا فقالوا: أيها خير، الخير أو من الخير منه؟ قيل لهم: من كان الخير منه متفضلا به فهو خير من الخير.

فإن قالوا: فأيا شر، الشر أو من الشر منه؟ قيل لهم: من كان الشر منه جائزا به فهو أشر من الشر، والله تعالى يكون منه الشر خلقا، وهو عادل به، ولذلك لا يلزمنا ما سألتهم عنه على أنكم ناقضون لأصولكم؛ لأنه إن كان من كان الشر منه فهو أشر من الشر، وقد خلق الله تعالى إبليس الذي هو أشر من الشر الذي يكون منه، فقد خلق ما هو أشر من الشرور كلها، وهذا نقض دينكم وفساد مذهبكم.

مسألة في الهدى

يقال للمعتزلة: أليس قد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٢١]، فأخبر أن القرآن هدى للمتقين؟ فلا بد من نعم. يقال لهم: أو ليس قد ذكر الله سبحانه وتعالى القرآن فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] فخير أن القرآن على الكافرين عمى؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: فهل يجوز أن يكون من خبر الله سبحانه وتعالى أن القرآن له هدى وهو عليه عمى؟ فلا بد من لا.

يقال لهم: فكما لا يجوز أن يكون القرآن عمى على من أخبر الله تعالى أنه له هدى، كذلك لا يجوز أن يكون القرآن هدى لمن أخبر الله أنه عليه عمى.

مسألة أخرى: ثم يقال لهم: إذا جاز أن يكون دعاء الله إلى الإيمان هدى لمن قبل ولمن لم يقبل، فما أنكرتم دعاء إبليس إلى الكفر إضلالاً لمن قبل ولمن لم يقبل، فإن كان دعاء إبليس إلى الكفر إضلالاً للكافرين الذين قبلوا عنه، دون المؤمنين الذين لم يقبلوا عنه، فما أنكرتم أن دعاء الله تعالى إلى الإيمان هدى للمؤمنين الذين قبلوا عنه، دون الكافرين الذين لم يقبلوا عنه، وإلا فما الفرق بين ذلك؟

مسألة أخرى: ويقال لهم: أليس قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فهل يدل قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ على أنه لم يضل

الكل؛ لأنه لو أراد الكل لقال: يضل به الكل، فلما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ علمنا أنه لم يضل الكل؟ فلا بد من نعم.

فيقال لهم: فما أنكرتم أن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ دليل على أنه لم يرد الكل؛ لأنه لو أراد الكل لقال: ويهدي به الكل، فلما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ علمنا أنه لم يهد الكل، وفي هذا إبطال قولكم: إن الله هدى الخلق أجمعين.

مسألة أخرى: ويقال لهم: إذا قلتم إن دعاء الله إلى الإيمان هدى للكافرين الذين لم يقبلوا عن الله أمره، فما أنكرتم أن يكون دعاء الله إلى الإيمان نفعا وصلاحا وتسديدا للكافرين الذين لم يقبلوا عن الله أمره، وما أنكرتم أن يكون عصمة لهم من الكفر، وإن لم يكونوا من الكفر معتصمين، وأن يكون توفيقا للإيمان وإن لم يوفقوا للإيمان، وفي هذا ما يجب أن الله سدد الكافرين، وأصلحهم، وعصمهم، ووقفهم للإيمان وإن كانوا كافرين، وهذا ما لا يجوز؛ لأن الكافرين مخذولون. وكيف يكونون موفقين للإيمان وهم مخذولون؟ فإن جاز أن يكون الكافر موفقا للإيمان، فما أنكرتم أن يكون الإيمان له متفقا، فإن استحال هذا، فما أنكرتم أن يستحيل ما قلتموه.

مسألة في الضلال

يقال لهم: هل أضل الله تعالى الكافرين عن الإيمان، أو عن الكفر؟ فإن قالوا: عن الكفر: قيل لهم: فكيف يكونون ضالين عن الكفر ذاهبين عنه، وهم كافرون؟ فإن قالوا: أضلهم عن الإيمان، تركوا قولهم. وإن قالوا: نقول: إن الله أضلهم، ولم يضلهم عن شيء.

قيل لهم: ما الفرق بينكم وبين من قال: إن الله هدى المؤمنين لا إلى شيء؟
فإن استحال أن يهدي المؤمنين لا إلى الإيمان، فما أنكرتم من أنه محال أن يضل الكافرين لا عن الإيمان.

مسألة أخرى: ويقال لهم: ما معنى قول الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؟

فإن قالوا: معنى ذلك أنه يسميهم ضالين، ويحكم عليهم بالضلال. قيل لهم: أليس خاطب الله العرب بلغتهم فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]؟ فلا بد من نعم. يقال لهم: وإذا كان الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن بلسان العرب، فمن أين وجدتم في لغة العرب أن يقال: أضل فلان فلانا، أي: سماه ضالا؟

فيقال: قالوا وجدنا القائل يقول: إذا قال رجل لرجل ضال قد ضللت. قيل لهم: قد وجدنا لعمرى القائل: ضلل فلان فلانا أنه سماه ضالا، ولم نجد لهم

يقولون: أضل فلان فلانا بهذا المعنى، فلما قال الله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَاطِلِينَ ﴾ لم يجوز أن يكون ذلك معنى ذلك الاسم، والحكم إذا لم يجوز في لغة العرب أن يقال: أضل فلان فلانا، إذا سماه ضالا، بطل تأويلكم إذا كان خلاف لسان العرب.

مسألة أخرى: ويقال لهم: إذا قلتم: إن الله أضل الكافرين بأن سماهم ضالين، وليس ذلك في اللغة على ما ادعيتموه، فيلزمكم إذا سمى النبي ﷺ قوما ضالين فاسدين بأن يكون قد أضلهم وأفسدهم بأن سماهم ضالين فاسدين، وإذا لم يجوز هذا بطل أن يكون معنى ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَاطِلِينَ ﴾ الاسم والحكم كما ادعيتم.

جواب: ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [آل عمران: ٨٦]؟ فذكر أنه لا يهديهم، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥] فجعل الدعاء عاما، والهدى خاصا، وقال تعالى: ﴿ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. فإذا أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يهدي القوم الكافرين، فكيف يجوز لقائل أن يقول: إنه هدى الكافرين مع إخباره أنه لا يهديهم، ومع قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، ومع قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ومع قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: ١٣]؟

وإن جاز هذا جاز أن يقال: أضل المؤمنين، مع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ومع قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. فإن لم يكن ذلك، فما أنكرتم أنه لا يجوز أن يهدي الكافرين مع قوله تعالى: ﴿يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ ومع سائر الآيات التي طالبناكم بها.

جواب: ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]؟ فلا بد من نعم. يقال لهم: فأضلهم ليضلوا أو ليهتدوا؟ فإن قالوا: أضلهم ليهتدوا.

قيل لهم: وكيف يجوز أن يضلهم ليهتدوا، وإن جاز هذا جاز أن يهديهم ليضلوا، وإذا لم يجز أن يهدي المؤمنين ليضلوا، فما أنكرتم من أنه لا يجوز أن يضل الكافرين ليهتدوا.

جواب: ويقال لهم: إذا زعمتم أن الله هدى الكافرين فلم يهتدوا، فما أنكرتم أنه تعالى ينفعهم فلا ينتفعون، وأن يصلحهم فلا ينصلحون، وإذا جاز أن ينفع من لا ينتفع بنفعه فما أنكرتم من أنه يضر من لا تلحقه المضرة، فإن كان لا يضر إلا من يلحقه الضرر فكذلك لا ينفع إلا منتفعا، ولو جاز أن ينفع من ليس منتفعا، ويهدي من ليس مهتديا؛ جاز أن يقدر من ليس مقتدرا، وإذا استحال ذلك استحال أن ينفع من ليس منتفعا، ويهدي من ليس مهتديا.

مسألة يسألون عنها: يقولون: أليس قد قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟ فما أنكرتم أن يكون

القرآن هدى للكافرين والمؤمنين.

قيل لهم: الآية خاصة؛ لأن الله تعالى قد بين لنا أنه هدى للمؤمنين، وخبرنا أنه لا يهدي الكافرين، والقرآن لا يتناقض، فوجب أن يكون قوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أراد المؤمنين دون الكافرين.

سؤال: فإن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ تَحْشَنُّهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقد أُنذِر النبي ﷺ من اتبع الذكر ومن لم يتبع، ومن خشي ومن لم يخش؟ قيل له: نعم.

فإن قالوا: فما أنكرتم أن يكون قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أراد به هدى لهم ولغيرهم؟

قيل لهم: إن معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ إنما أراد به: ينتفع بإنذارك من اتبع الذكر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ تَحْشَنُّهَا﴾ أراد أن الإنذار ينتفع به من يخشى الساعة، ويخاف العقوبة فيها، على أن الله تعالى قد أخبر في موضع آخر من القرآن أنه أُنذِر الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. وهذا هو خبر عن الكافرين، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وهذا خطاب للكافرين.

فلما أخبر الله تعالى في آيات من القرآن أنه أنذر الكافرين، كما أخبر في آيات من القرآن أنه أنذر من يخشاها، وأنذر من اتبع الذكر؛ وجب بالقرآن أن الله قد أنذر المؤمنين والكافرين، فلما أخبرنا الله أنه هدى للمتقين وعمى على الكافرين، وخبرنا أنه لا يهدي الكافرين؛ وجب أن يكون القرآن هدى للمتقين دون الكافرين.

سؤال: وإن سأل سائل عن قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا آلَعَمَىٰ عَلَىٰ أَهْلَدَيْنِ﴾ [فصلت: ١٧]. فقال: أليس ثمود كانوا كافرين وقد أخبر الله تعالى أنه هداهم. قيل له: ليس الأمر كما ظننت.

والجواب في هذه الآية على وجهين:

أحدهما: أن ثمود كانوا فريقين؛ مؤمنين وكافرين، وهم الذين أخبر الله أنه نجاهم مع صالح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٦٦]. فالذين عنى الله سبحانه وتعالى من ثمود أنه هداهم هم المؤمنون دون الكافرين؛ لأن الله تعالى قد بين لنا في القرآن أنه لا يهدي الكافرين، والقرآن لا يتناقض، بل يصدق بعضه بعضا، فإذا أخبرنا في موضع أنه لا يهدي الكافرين، ثم خبر في موضع آخر أنه هدى ثمود، علمنا أنه إنما أراد المؤمنين من ثمود دون الكافرين.

والوجه الآخر: أن الله سبحانه وتعالى عنى قوما من ثمود كانوا مؤمنين ثم ارتدوا، فأخبر أنه تعالى هداهم، فاستحبوا بعد الهداية الكفر على الإيمان، وكانوا في حال ما هداهم مؤمنين.

فإن قال قائل معترضا في الجواب الأول: كيف يجوز أن يقول: ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ ويعني المؤمنين من ثمود، ويقول: ﴿فَأَسْتَحْبُوا﴾ يعني الكافرين منهم وهم غير مؤمنين؟

يقال له: هذا جائز في اللغة التي ورد بها القرآن أن يقول: ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ ويعني المؤمنين من ثمود، ويقول: ﴿فَأَسْتَحْبُوا﴾ ويعني الكافرين منهم، وقد ورد القرآن بمثل هذا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]. يعني الكافرين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. يعني المؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]. يعني الكافرين، ولا خلاف عند أهل اللغة في جواز الخطاب بهذا أن يكون ظاهره لجنس والمراد به جنسان، فبطل ما اعترض به ودل على جهله.

باب ذكر الروايات في القدر

روى معاوية بن عمرو، ثنا زائدة، قال: ثنا سليمان الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ -وهو الصادق المصدوق-: «أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك، قال: فيؤمر بأربع كلمات، يقال: اكتب أجله، ورزقه، وعمله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»^(١).

قال ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». لا حرمننا الله منها.

وروى معاوية بن عمرو قال: ثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى صلوات الله وسلامه عليهما فقال موسى عليه السلام: يا آدم أنت الذي خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، قال: فقال آدم ﷺ: أنت موسى الذي اضطفاك الله بكلماته، تلومني على عمل كتبه الله عليّ قبل أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ذكر الملائكة، برقم (٣٣٣٢)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه ...، برقم (٢٦٤٣/١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

يخلق الله السماوات، قال: فَجَجَّ آدَمُ مُوسَى^(١).

وروى حديث حَجَّ آدَمُ مُوسَى: مالك عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وهذا يدل على بطلان قول القدرية الذين يقولون: إن الله تعالى لا يعلم الشيء حتى يكون؛ لأن الله تعالى إذا كتب ذلك وأمر بأن يكتب فلا يكتب شيئا لا يعلمه - جل عن ذلك وتقدس - وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَاسِرُهَا إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدْدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. فذلك يبين أنه يعلم الأشياء كلها.

وقد أخبر الله تعالى أن الخلق يبعثون ويحشرون، وأن الكافرين في النار يخلدون، وأن الأنبياء والمؤمنين في الجنان يدخلون، وأن القيامة تقوم ولم تقم القيامة، فذلك يدل على أن الله تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون، وقد قال تعالى في أهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]، فأخبر عما لا يكون أنه لو كان كيف يكون، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ﴿١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفات موسى وذكره بعد، برقم (٣٤٠٩)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (٢٦٥٢/١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿ [طه: ٥١، ٥٢]. ومن لا يعلم الشيء قبل كونه لا يعلمه بعد تقضيه، تعالى الله عن قول الظالمين علوا كبيرا.

وروى معاوية بن عمرو، قال: ثنا زائدة، عن سليمان الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن ربيعة، قال: كنا عند عبد الله، قال: فذكروا رجلا فذكروا من خُلِقَ، فقال القوم: أما له من يأخذ على يديه؟ قال عبد الله: أرايتم لو قطع رأسه أكنتم تستطيعون أن تجعلوا له رأسا؟ قالوا: لا. قال عبد الله: إن النطفة إذا وقعت في المرأة مكثت أربعين يوما، ثم انحدرت دما، ثم تكون علقة مثل ذلك، ثم تكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث ملك فيقول: اكتب أجله، وعمله، ورزقه، وأثره، وخلقه، وشقي أو سعيد، وأنكم لن تستطيعوا أن تغيروا خُلُقَه حتى تغيروا خُلُقَه ^(١).

وروى معاوية بن عمرو، قال: ثنا زائدة، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن علي رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتى النبي ﷺ فقعده ونحن حوله، ومعه حصير فنكت بها ورفع رأسه، فقال: «ما منكم من نفس متفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة»، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقوة فسيصير إلى الشقوة؟ فقال: «اعملوا فكل مُيسَّر لما خُلِقَ له، أما أهل الشقوة فميسرون لعمل الشقوة، وأما أهل السعادة فميسرون لعمل السعادة»، ثم قال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿

وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ وَاسْتَغْنَى ﴿٥﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾ ﴿[الليل: ١٠-٥]﴾^(١).

وروى موسى بن إسماعيل قال: ثنا حماد، قال: ثنا هشام بن عروة، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، وإنه مكتوب في الكتاب من أهل النار، فإذا كان قبل موته تحول فعمل بعمل أهل النار، فمات فدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه مكتوب في الكتاب أنه من أهل الجنة، فإذا كان قبل موته تحول فعمل بعمل أهل الجنة، فمات فدخل الجنة»^(٢).

وهذه الأحاديث تدل على أن الله تعالى علم ما يكون أنه يكون وكتبه، وأنه قد كتب أهل الجنة وأهل النار، وخلقهم فريقين، فريقا في الجنة وفريقا في السعير، وبذلك نطق كتابه العزيز؛ إذ يقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. فخلق الله الأشقياء للشقاوة، والسعداء للسعادة، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: {فسنيسره للعسرى}، برقم (٤٩٤٩)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الأدمي، برقم (٢٦٤٧/٧)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٧/٣) من حديث أنس رضي الله عنه وصححه الهيثمي في المجمع (٢١٢/٧).

وروي عن النبي ﷺ: أن الله سبحانه وتعالى جعل للجنة أهلا وللنار أهلا، أعادنا الله منها.

دليل في القدر: وما يدل على بطلان قول القدرية قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وجاءت الرواية عن رسول الله ﷺ: أن الله سبحانه وتعالى مسح ظهر آدم فأخرج ذريته من ظهره كأمثال الذر، ثم قررهم بوحدانيته وأقام الحجة عليهم؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴿[الأعراف: ١٧٢]، قال الله تعالى: ﴿أَنْتَ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] (١)، فجعل تقريرهم بوحدانيته لما أخرجهم من ظهر آدم ﷺ حجة عليهم إذا أنكروا في الدنيا ما كانوا عرفوه في الذر الأول، ثم من بعد الإقرار جحدوه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: أنه سبحانه وتعالى قبض قبضة للجنة، وقبض قبضة للنار، ميز بعضا من بعض، فغلبت الشقوة على أهل الشقوة، والسعادة على أهل السعادة (٢). قال الله تعالى مخبرا عن أهل النار - أعادنا الله منها - أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. فكل ذلك أمر قد سبق في علم الله تعالى، ونفذت فيه إرادته، وتقدمت فيه مشيئته.

(١) تقدم نحوه.

(٢) لم أجده بهذا السياق.

وروى معاوية بن عمرو قال: ثنا زائدة، قال: حدثنا طلحة بن يحيى القرشي، قال: حدثني عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها أن النبي ﷺ دعي إلى جنازة غلام من الأنصار ليصلي عليه، فقالت عائشة رضي الله عنها: طوبى لهذا يا رسول الله، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يدركه، قال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله تعالى قد جعل للجنة أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وللنار أهلاً جعلهم لها وهم في أصلاب آبائهم»^(١)، وهذا يبين أن السعادة قد سبقت لأهلها، والشقاء قد سبق لأهله. وقال النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢).

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلَّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِمِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِمِ كَثِيرًا﴾، فأخبر تعالى أنه يضل ويهدي، وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، فأخبرنا أنه ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. وإذا كان الكفر مما أَرَادَهُ فَقَدْ فَعَلَهُ، وَقَدَرَهُ، وَأَحْدَثَهُ، وَأَنْشَأَهُ، وَاخْتَرَعَهُ، وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٥، ٩٦]. فلو كانت عبادتهم للأصنام من أعمالهم كان ذلك مخلوقاً لله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. يريد أنه تعالى يجازيهم على أعمالهم، فكذلك إذا ذكر عبادتهم للأصنام وكفرهم بالرحمن، ولو كان مما قدره وفعلوه لأنفسهم

(١) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٦٢/٣٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تقدم تخريجه.

لكانوا قد فعلوا وقدروا ما خرج عن تقدير ربهم وفعله، وكيف يجوز أن يكون لهم من التقدير والفعل والقدرة ما ليس لربهم؟

فمن زعم ذلك فقد عبَّز الله. تعالى الله عن قول المعجزين له علوا كبيرا.

ألا ترى أن من زعم أن العباد يعلمون ما لا يعلمه الله سبحانه وتعالى لكان قد أعطاهم من العلم ما لم يدخله في علم الله، وجعلهم الله نظراء، فكذلك من زعم أن العباد يفعلون ويقدرّون ما لم يقدره، ويقدرّون على ما لم يقدر عليه، فقد جعل لهم من السلطان والقبرة والتمكن ما لم يجعله للرحمن. تعالى الله عن قول أهل الزور والبهتان، والإفك والطغيان علوا كبيرا.

جواب: ويقال لهم: هل فعل الكافر الكفر فاسدا باطلا متناقضا؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: وكيف يفعله فاسدا متناقضا قبيحا، وهو يعتقدده حسنا صحيحا أفضل الأديان؟

وإذا لم يجوز ذلك؛ لأن الفعل لا يكون فعلا على حقيقته إلا من علمه على ما هو عليه من حقيقته، كما لا يجوز أن يكون فعلا ممن لم يعلمه فعلا، فقد وجب أن الله تعالى هو الذي قدر الكفر، وخلق كفرة فاسدا باطلا متناقضا، خلافا للحق والسداد.

باب الكلام في الشفاعة والخروج من النار

ويقال لهم: قد أجمع المسلمون أن لرسول الله ﷺ شفاعة، فَلِمَنِ الشفاعة، أهى للمذنبين المرتكبين للكبائر، أم للمؤمنين المخلصين؟

فإن قالوا: للمذنبين المرتكبين للكبائر وافقوا. وإن قالوا: للمؤمنين المبشرين بالجنة الموعودين بها.

قيل لهم: فإذا كانوا موعودين بالجنة وبها مبشرين، والله تعالى لا يخلف وعده، فما معنى الشفاعة لقوم لا يجوز عندكم ألا يدخلهم الله جناته؟ فما معنى قولكم أنهم قد استحقوها على الله سبحانه وتعالى واستوجبوها عليه سبحانه، وإذا كان الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة وكان تأخيرهم عن الجنة ظلما، فإنما يشفع الشفعاء إلى الله تعالى في ألا يظلم على مذاهبكم. تعالى الله عن افتراءكم عليه علوا كبيرا.

فإن قالوا: يشفع النبي ﷺ إلى الله تعالى في أن يزيدهم من فضله، لا في أن يدخلهم جناته.

قيل لهم: أو ليس قد وعدهم الله سبحانه وتعالى ذلك؟ فقال تعالى: ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣]، والله تعالى لا يخلف وعده، فإنما يشفع إلى الله تعالى عندكم في ألا يخلف وعده، وهذا جهل منكم، وإنما الشفاعة المعقولة فيمن استحق عقابا أن يوضع عنه عقابه، أو في من لم يعده شيئا أن يتفضل عليه به، فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقا فلا وجه لهذا.

سؤال: فإن سألوا عن قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالجواب عن ذلك: إلا لمن ارتضى لمن يشفعون له، وقد روي أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر، وروي عن النبي ﷺ: أن المذنبين يخرجون من النار.

باب الكلام في الحوض

وأنكرت المعتزلة الحوض، وقد روي عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين بلا خلاف.

وروي عن عفان، قال: ثنا حماد بن مسلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذكر الحوض عند عبيد الله بن زياد فأنكره، فبلغ أنسا رضي الله عنه فقال: لا جرم والله لأفعلن به، قال: فأتياه فقال: ما ذكرت من الحوض، قال عبيد الله: هل سمعت النبي ﷺ يذكره؟ قال: سمعت النبي ﷺ أكثر من كذا وكذا مرة يقول: «ما بين طرفيه - يعني الحوض - ما بين أيلة ومكة، أو ما بين صنعاء ومكة، وإن آتيته أكثر من نجوم السماء»^(١). اللهم اسقنا منه شربة لا نظماً بعدها أبداً.

وروي أحمد بن عبد الله بن يونس قال: ثنا ابن زائدة، عن عبد الملك بن عمير عن جندب بن سفيان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا قرطكم على الحوض»^(٢) في أخبار كثيرة.

(١) بهذا اللفظ عند أحمد (٢٣٠/٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وينحوه عند البخاري (٦٥٨٠) ومسلم (٢٣٠٣/٣٩) من حديث أنس أيضاً.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، برقم (٦٥٧٥)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا، برقم (٢٢٩٧/٣٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

باب الكلام في عذاب القبر

وأنكرت المعتزلة عذاب القبر أعاذنا منه. وقد روي عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، وروى عن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وما روي عن أحد منهم أنه أنكره ونفاه وجحدته، فوجب أن يكون إجماعاً من أصحاب النبي ﷺ.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة قال: ثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١).

وروى أحمد بن إسحاق الحضرمي، قال: ثنا وهيب، قال: ثنا موسى بن عقبة قال: حدثني أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يتعوذ من عذاب القبر. أعاذنا الله منه^(٢).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ لَا أَنْ تَدَافَتُوا لَسَأَلْتُ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُسَمِّعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعَنِي»^(٣).

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٦٧/٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر، برقم (١٣٧٦)، من حديث ابنة خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٦٧/٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

دليل آخر: وما يبين عذاب الكافرين في القبور قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْهَا غُدُوءًا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. فجعل عذابهم يوم تقوم الساعة بعد عرضهم على النار في الدنيا - غدوا وعشيا، وقال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مُرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١] مرة بالسيف، ومرة في قبورهم، ثم يُرَدُّونَ إلى عذاب غليظ في الآخرة.

وأخبر الله تعالى أن الشهداء في الدنيا يرزقون، ويفرحون بفضل الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٥٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۚ بِالَّذِينَ كَذَبُوا لَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠، ١٦٩]. وهذا لا يكون إلا في الدنيا؛ لأن الذين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا ولا قتلوا.

باب الكلام في إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، وأثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار والسابقين إلى الإسلام، وعلى أهل بيعة الرضوان، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين في مواضع كثيرة، وأثنى على أهل بيعة الرضوان فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وقد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهم على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وسموه خليفة رسول الله ﷺ، وبايعوه وانقادوا له، وأقروا له بالفضل، وكان أفضل الجماعة في جميع الخصال التي يستحق بها الإمامة من العلم والزهد وقوة الرأي، وسياسة الأمة وغير ذلك.

دليل آخر: من القرآن على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد دل الله تعالى على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سورة براءة، فقال تعالى للقاعدين عن نصرته نبيه ﷺ والمتخلفين عن الخروج معه: ﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنَ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]، وقال تعالى في سورة

أخرى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُوعًا وَنَنْتَعِمُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥]. يعني قوله: ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليل ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ۖ يَعْذِبْكُمْ عُذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦]. والداعي لهم إلى ذلك غير النبي ﷺ، الذي قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾، وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾. فمنعهم الخروج مع نبيه ﷺ، وجعل خروجهم معه تبديلا لكلامه، فوجب بذلك أن الداعي الذي يدعوهم إلى القتال داع يدعوهم بعد نبيه ﷺ.

وقد قال الناس: هم أهل فارس، وقالوا: أهل اليمامة، فإن كانوا أهل اليمامة فقد قاتلهم بعد نبيه ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإن كانوا الروم فقد قاتلهم الصديق أيضا، وإن كانوا أهل فارس فقد قاتلوا في أيام أبي بكر رضي الله عنه، وقاتلهم عمر رضي الله عنه من بعده وفرغ منهم.

وإذا وجبت إمامة عمر رضي الله عنه وجبت إمامة أبي بكر رضي الله عنه، كما وجبت إمامة عمر رضي الله عنه؛ لأنه العاقل له الإمامة، فقد دل القرآن على إمامة الصديق رضي الله عنه والفاروق رضي الله عنه.

وإذا وجبت إمامة أبي بكر رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ وجب أنه أفضل

المسلمين.

دليل آخر: الإجماع على إمامة أبي بكر رضي الله عنه.

ومما يدل على إمامة الصديق رضي الله عنه أن المسلمين جميعاً بايعوه وانقادوا لإمامته، وقالوا له: يا خليفة رسول الله ﷺ، ورأينا علياً والعباس رضي الله عنهما بايعاه رضي الله عنه، وأقرأ له بالإمامة.

وإذا كانت الرافضة يقولون: إن علياً رضي الله عنه هو المنصوص على إمامته، والراونديّة تقول: العباس هو المنصوص على إمامته، ولم يكن للناس في الإمامة إلا ثلاثة أقوال:

من قال منهم: إن النبي ﷺ نص على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو الإمام بعد رسول الله ﷺ. وقول من قال: نص على إمامة علي رضي الله عنه. وقول من قال: الإمام بعده العباس.

وقول من قال: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، هو بإجماع المسلمين والشهادة له بذلك.

ثم رأينا علياً رضي الله عنه والعباس رضي الله عنه قد بايعاه، وأجمعاً على إمامته، فوجب أن يكون إماماً بعد النبي ﷺ بإجماع المسلمين.

ولا يجوز لقائل أن يقول: كان باطناً علي والعباس خلاف ظاهرهما، ولو جاز هذا المدعيه لم يصح إجماع، وجاز لقائل أن يقول ذلك في كل إجماع للمسلمين.

وهذا يسقط حجية الإجماع؛ لأن الله تعالى لم يتعبدنا في الإجماع بباطن الناس، وإنما تعبدنا بظاهرهم، وإذا كان ذلك كذلك فقد حصل الإجماع والاتفاق على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وإذا ثبتت إمامة الصديق رضي الله عنه، ثبتت إمامة الفاروق رضي الله عنه؛ لأن الصديق رضي الله عنه نص عليه وعقد له الإمامة، واختاره لها. وكان أفضلهم بعد أبي بكر رضي الله عنه.

وثبتت إمامة عثمان رضي الله عنه بعد عمر رضي الله عنه بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى؛ الذين نص عليهم عمر رضي الله عنه، فاختره ورضوا بإمامته، وأجمعوا على فضله وعدله.

وثبتت إمامة علي رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه بعقد من عقدها له من الصحابة رضي الله عنهم من أهل الحُل والعقد، ولأنه لم يدعها أحد من أهل الشورى غيره في وقته، وقد اجتمع على فضله وعدله، وأن امتناعه عن دعوى الأمر لنفسه في وقت الخلفاء قبله كان حقاً؛ لعلمه أن ذلك ليس بوقت قيامه، فلما كان لنفسه في وقت الخلفاء قبله، ثم لما صار الأمر أظهر وأعلن ولم يقصر حتى مضى على السداد والرشاد، كما مضى من قبله من الخلفاء وأئمة العدل من السداد والرشاد متبعين لكتاب ربهم وسنة نبيهم.

هؤلاء هم الأئمة الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقد روى شريح بن النعمان قال: ثنا حشرج بن نباتة، عن سعيد بن جهمان،

قال ثني سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»، ثم قال لي سفينة: أمسك خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان، ثم أمسك خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، قال: فوجدتها ثلاثين سنة^(١).

فدل ذلك على إمامة الأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين.

فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين، فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعليّ الإمام، وكلهم من أهل الاجتهاد، وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة، فدل على أنهم كلهم كانوا على حق في اجتهادهم، وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان على تأويل واجتهاد.

وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم، وتعبدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم، والتبري من كل من ينقص أحدا منهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قلنا في الأبرار قولاً وجيزاً، والحمد لله أولاً وآخراً.

لهاية الكتاب

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في الخلفاء، برقم (٤٦٤٦) من حديث سفينة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

فهرس

٣	مقدمة
٧	باب في قول أهل الزيغ والبدع
١١	باب في إبانة قول أهل الحق والسنة
١٩	باب الكلام في إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة
٢٥	مسألة والجواب عنها
٢٩	باب في الرؤية
٣٣	باب الكلام في أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق
٣٦	الفصل
٣٨	الفصل
٤٤	الرد على الجهمية
٤٦	الرد على الجهمية
٤٨	باب في ذكر الرواية في القرآن
٥٥	باب الكلام على من وقف في القرآن، وقال: لا أقول إنه مخلوق ولا أنه غير مخلوق
٥٩	باب ذكر الاستواء على العرش
٦٦	باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين
٧٥	باب الرد على الجهمية في نفهم علم الله تعالى وقدرته وجميع صفاته
٨٣	باب الكلام في الإرادة
٩٢	باب الكلام في تقدير أعمال العباد والاستطاعة والتعديل والتجويز
٩٤	مسألة في الاستطاعة

٩٨.....	مسألة في التكليف
٩٩.....	مسألة في إيلاام الأطفال
١٠١.....	الرد على المعتزلة
١٠٣.....	مسألة في الختم
١٠٥.....	مسألة في الاستثناء
١٠٦.....	مسألة في الآجال
١٠٧.....	مسألة في الأرزاق
١٠٨.....	مسألة أخرى في الأرزاق
١١٠.....	مسألة في الهدى
١١٢.....	مسألة في الضلال
١١٨.....	باب ذكر الروايات في القدر
١٢٥.....	باب الكلام في الشفاعة والخروج من النار
١٢٧.....	باب الكلام في الخوض
١٢٨.....	باب الكلام في عذاب القبر
١٣٠.....	باب الكلام في إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
١٣٤.....	نهاية الكتاب
١٣٥.....	فهرس